عش مرة واحدة مت مرتين

بقلم : محمد عضمة

دار الوهيبي للنشر والتوزيع(بن معيط للطباعة)

اسم الكتاب: عش مرة واحدة مت مرتين

اسم المؤلف : محمد السعيد عضمة

رقم الإيداع :2044/ 2023م

ترقيم دولي: 978-977-8952-05-6

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

إهداء

أكاد أري أن هناك أجيال قادمة لن تفتح كتب التاريخ في ظل طوفان الحداثة لذا أهدي هذا العمل إليهم , وأقول أتمنى يوما ما أن تفتحوا كتب التاريخ وتتعلموا منه , وإن لم تفعلوا , أتمنى وقتها أن تطالعون هذا العمل ربما يضيف إلي وجدانكم يوما ما معلومة ذات قيمة

مقدمة

بصفتي مهتمة بالأدب بشكل عام و بأدب الأطفال واليافعين بشكل خاص لمست عدم وجود مادة أدبية كافيه تخاطب الشباب و تعمل على مخاطبة وعيهم و زرع مبادئ وقيم تتماشى مع ثقافتنا في عقولهم . بعد الاطلاع على مسودة هذا العمل وجدت نفسي أمام رواية تحمل كل المقومات التي تجعلها مثالية للشباب بوجه خاص ..رواية تصحح مفاهيم..تسلط الضوء علي بقاع منسية في مصر ..تشدد على القيم والمبادئ كل هذا بأسلوب شيق جذاب ولغة سليمة سهلة .لم أستطع أن اتركها من يدي إلا عند الانتهاء من قراءتها ..رواية أتمني أن تكون موجودة في كل بيت

رشا ماجد

"خُذني إليكَ فكل شيءٍ موحشٌ

حتى المسير بلا يديك كئيبُ

كل الدروبِ إلى لقائك أُغلقت

يا بؤسَ قلبٍ لا يراكَ تجيب"

الفصل الأول: كل الطرق توصل إلي سيوه

١

ارتفعت الشمس إلي كبد السماء في هذا اليوم الصيفي الحار من أغسطس عام 2062 , في الوقت نفسه كانت سيارة صغيرة تسير في اتجاه شارع مطلع القلعة عند مقابر باب الوزير .

بعد قليل توقفت السيارة أمام حوش من أحواش المقابر ليهبط منها رجل خمسيني وقور ومعه ابنه شاب عشريني قوي البنية ,ليتجه الاثنان بعدها إلي قبرين متجاورين كتب على شاهد أحدهما (قبر المرحوم عمر صفي الدين) توفي بتاريخ ٢٠٢٢/٣/٥, أما القبر الأخر فقد كتب عليه (خالد عبد المنعم) توفي بتاريخ ٢٠١٩/٧/٦.

؛ نظر الرجل إلي القبرين ، دمعت عيناه ثم اتجه إلي قبر عمر صفي الدين، وضع يده على الشاهد يتمتم بالفاتحة ثم أزاح التراب من على شاهد القبر أمام نظرات الشاب المندهشة التي سرعان ما تحولت إلي أسئلة تؤرق باله لم تهدأ حتى دفعته إلى أن يجهر بها.

- أبي , أريد أن أعرف، منذ أن كنت صغيراً ونحن نأتي إلى هذا المكان لنزور جدي، لكنني أجدك دوما تقف ها هنا، عند هذا القبر، قبر عمر صفي الدين، ولا تقف عند قبر جدي الراحل خالد عبد المنعم ؟

تنهد الرجل وهو ينظر إليه قبل أن يجيبه قائلاً :

- سبحان الله، كم تشبه جدك، لهذا أسميتك خالد ، خالد أحمد خالد عبد المنعم.

صمت الرجل لثواني معدودة قبل أن يتطلع إلى شاهد القبر وهو يكمل حديثه .

- خالد عبد المنعم، أبي الراحل وجدك، لقد كان من المحاربين في هذه الدنيا , محارب تحكمه المبادئ ويري أنها حقا لا تتجزأ, كان معلماً لمادة الدراسات الاجتماعية, عاشقاً للتاريخ ودراساته وتعليمه , ويري أنه دوما على ضوء الماضي يسير الحاضر, أما عن موضوع العلاقة بينه وبين عمر صفي الدين فتلك قصة أخرى طويلة .

قاطعه خالد بحماس.

- لطالما تمنيت سماعها يا أبي، ولا أعرف متى سوف تقصها على العائلة؟

- ربما حان الوقت يا خالد , سامحني يا بني، لقد كانت هناك أوامر عليا بهذا الشأن، وهي التي كانت تتحكم في هذا الأمر .

بدت الدهشة على خالد فتساءل قائلاً

- أهي على هذه الدرجة من الخطورة ؟ نحن في عام 2062 يا أبي عصر تنوع مصادر المعلومات , الانترنت الفضائي , يكفي أن أطلب أي معلومة ما وسيقوم هاتفي ببثها أمامي هولوجرام .

- بل وأكثر يا ولدي , وربما كنا مبالغين , ولكن اسمع منى إذن قصة جدك خالد عبد المنعم , الذي عاش مرة واحدة ومات مرتين.

- كلي أذان صاغية .

تطلع أحمد إلى وجه ولده المتأهب لسماع تلك الحكاية التي ظلت لسنوات طويلة لا يحق له أن يجهر بها أو يسمعها لغيره حتى وإن كان ولده وقرة عينه، تفحص وجه ولده مرة أخرى ثم راح يقص عليه ما كان.

- أربعون عام مرت كاملة على تلك الحكاية، والآن أقصها عليك.

٢

طفح الكيل

قالها خالد عبد المنعم المدرس بمدرسة السيدة خديجة الإعدادية بالسيدة زينب وهو يدخل إلي زوجته بعد انتهاء اليوم الدراسي , فما كان منها إلا أن استقبلته بهدوء دون أن تحاول مناقشته فهي تعلم علم اليقين أن الأمر الذي أوصله إلي هذه الدرجة من الانفعال أمر جلل .

جلس على كرسيه المفضل إليه في بلكونة الدار فما كان منها الا أن اتجهت للمطبخ , وأعدت كوبا من عصير الليمون بالنعناع ثم توجهت به إليه , تناوله منها بامتنان ثم بدأ يرتشف رشفات قليلة منه محدقا بغير هدف إلي الشارع , قبل أن تبادره بالحديث

-هل أنت أفضل الآن ؟

تنهد في زفرة حارة

- أفضل ولله الحمد , لا تأخذيني يا مريم , فقط ضغوط العمل اليومية .

- كثرت ضغوط العمل في الآونة الأخيرة يا خالد , أصبحت في الفترة الأخيرة لا أراك إلا متعصبا أو متأففا أو في رحلة فكر لا تنتهي , إنك لا تستطيع إصلاح الكون , قلت لك من قبل لا تكن مثل دون كيشوت يصارع طواحين الرياح متخيلا أنها فرسان .

خالد بإصرار : لما أصبحنا معلمين إذا ؟ , هل أصبحت التجارة هي لغة العصر في التعليم ؟ لم أعد أستطيع العمل أو التكيف على جو المؤامرات هذا والتخوين والتملق , أصبح الأمر مثيرا للغثيان

تجلس بجانبه مريم بهدوء

- هل جد جديد في المدرسة ؟

خالد: لا جديد وربما هذا هو سبب توتري وغضبي , إن الزملاء الأفاضل هناك ما زالوا مصرين على أن يحاربون

طريقتي وأسلوبي في الشرح ومحاربتي للاستغلال في الدروس الخصوصية بإعطاء دروس تقوية بثمن رمزي .

يلتفت إليها ويضع وجهها بين يديه

- أنت لا تعرفين يا مريم ما الذي أسعى إليه , تعلمين أن أبي كان معلما من قبل في التربية والتعليم وكان يسير على نفس المنهج , إذا دخلت التجارة التربية والتعليم وأصبح كل شيء بها يثمن بالمال, علي الدنيا السلام .

تلوح مريم بيدها

-وكيف ستستطيع مواجهة هذا الطوفان من سلوك البشر الجنوني هذا ؟أنت لست سدا يا عزيزي , أنت بشري أخر , له طاقته القصوى ولن تتعداها , أصبحت مريضا في الفترة الأخيرة ومتعب أيضا ولن يعقل أن تستمر هكذا إلي الأبد , فكر في نفسك وفي بيتك كما تفكر في الآخرين .

نظر لها في خجل مشوب بالشفقة قائلا

-صدقت ,واعلم أنني قد أبالغ أحيانا حينما أنخرط بأمر ما , ولكن صدقيني هذا طبعي والطبع غلاب .

- وأنا فوضت أمري إلي الله , قل لي ألم تشعر بالجوع بعد ؟

يضحك

- نعم والله, أحيانا أشعر بالجوع حينما أتذكر أنني بشري ولست آلة

تسخر من أسلوبه

- أحيانا؟يا لك من رجل , هلم بنا إذن , حان موعد عودة خالد وهيام من المدرسة , اذهب الآن للوضوء والصلاة ريثما يعودون وستجد الطعام جاهز على المائدة .

-ماذا أعددت اليوم ؟

-قلقاس بالسلق واللحم , تجديد في الطعام .

يقبل ظاهر يده في رضا

-نعمة ولله الحمد .

وكعادته بعد الغداء نام , وأثناء نومه استغرق في حلم عجيب وجد نفسه فيه طفلا صغيرا في سيوه يمسك بيد جده الشيخ سلام ويستمعان إلي أناشيد الصوفية في الحضرة

"خُذني إليكَ فكل شيءٍ موحشٌ حتى المسير
بلا يديك كئيبُ كل الدروبِ إلى لقائك أغلقت يا
بؤسَ قلبٍ لا يراكَ تجيب"

٣

ومن هنا حينما سنحت الفرصة لصلاح الدين الأيوبي أن يريق دماء الصليبين انتقاما لمذبحة بيت المقدس قبل أكثر من تسعين عاما , عاملهم بأخلاق الإسلام الكريمة وبهذا رد على كل من انتقده وقتها بأن ديننا لم يأمرنا بسفك الدماء ,وليس هذا من صحيح الدين .

لترفع طالبة يدها قائلة

- هل لي في استفسار يا سيدي ؟

خالد: لما لا , أرحب بكل الأسئلة ؟

الطالبة: لماذا رفعت الجزية عن المسيحيين في العصر الحديث ؟

خالد : كانت الجزية قديما تفرض على أهل الكتاب نظير حمايتهم من الدولة الإسلامية وقتها , أما في العصور الحديثة أصبح جميع الطوائف مسلمين ومسيحيين يجندون في الجيش ويدافعون عن بلادهم فسقطت الجزية عنهم .

ثم أدار عينه في الجميع منتظرا سؤال أخر جديد ,فوجد مؤمن تلميذه المشاغب ذو الأفكار المتمردة يسأله

- قل لي يا مستر خالد ..هل. تعتقد حقا أن الإسلام كان واضحاً بخصوص بداية حياة الإنسان على الأرض؟؟

قال خالد

- بمعنى؟

قال مؤمن

- هل تؤمن بهذا التفسير القاصر لبداية حياة الإنسان على الأرض؟ أن بداية ظهور البشر جاء في خلق الله لكل من آدم وحواء ؟ .. هل هذا هو التفسير الذي قدمه الدين لأصل الإنسان على الأرض ؟

إن كان هذا إيمانك الخاص بهذا التفسير الطفو لي لخلق البشر ..فاعلم أنه تفسير يتناقض مع ما يقدمه العلم اليوم.

علمياّ الإنسان وأي فصيل حي من الكائنات الحية على الأرض لم يأت من زوج واحد من الكائنات وإنما ظهور هذا النوع الحي جاء بعد عمليات تطورية كثيرة لأفراد كثيرة خلال فترة طويلة من الزمن.

وإذا صدقنا القصة الدينية التي كانت تريد أن تقول أن هناك آدم وحواء للبشر ..فيجب أن نصدق أن هناك ادم وحواء للكلاب، وآدم وحواء للأسود والنمور والحمار الوحشي.

ثم يقهقه مؤمن بشدة ويضحك قائلا

-وطبعاً هذه قصة مضحكة اليوم، وخيانة للعلم والإنسان.. إذا تمسكنا بهذا التفسير الديني البدائي كطريقة لتعليل تنوع الحياة على الأرض ووجود الإنسان..إذن على الدنيا السلام .

تراجع خالد في كرسيه قائلا

-إن خلق الله لأدم هو أمر خارق للعادة الإنسانية كدليل على قدرة الله كن فيكون ..أما بعد. هذا خلق له حواء من ضلعه للتكاثر ..وأما الحيوانات خلقها الله كما هي ذكرا وأنثى للتكاثر وخدمة الإنسان ..خلق الله كل شيء لحكمة بالغة، فلم يخلق شيئاً عبثاً، وإنما لكل مخلوق وظيفة يؤديها تعود بالنفع على

المخلوقات الأخرى، و ليظهر الله قدرته و عظمته في الخلق وتكون جليه للناس، فتكون دليل على قدرته سبحانه وتعالى و مدى عظمته ، ويتخذ الله من مخلوقاته آيات للمتفكرين، و عندما خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام و أنزله للأرض لعمارتها سخر له مخلوقات عديدة ينتفع بها و تعينه في مهمته الرئيسية التي خلقه الله من أجلها، وهي إعمار الكون، و قد نجهل في بعض الأحيان فائدة أي حيوان من الحيوانات التي خلقها الله، و لكن بمرور الوقت يتجلى لنا مدى عظمة خلقها وحكمة الله في ذلك، فالحيوانات عالمٌ كبيرٌ مستقل بذاته.

سأله مؤمن

- إذا كان الإنسان خلق من طين والجن من نار فمما خلقت الحيوانات؟

- خلقت من ماء استدلالاً بظاهر قوله تعالى :

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إن كنت لا تؤمن بقدرة الله على الخلق دعني اريك معجزته في خلق الخلية ..الجنين في عمر ثلاثة أيام !! هو عبارة عن 8 خلايا ، هذه خلية انقسمت إلى المجموعة لديها القدرة على الانقسام 100 تريليون خلية ! من الذي يخبر هذه الخلية بأنها يجب أن تنقسم وتتكاثر وتشكل إنساناً ؟ إن أغرب ما في الأمر أن الخلية الأم تبدأ بالانقسام ولكن لا تنتج نفس الخلايا ،

بل تنتج خلايا متنوعة منها ما يشكل الجلد ، وأخرى للعظام ، وآخري للدماغ ، وخلايا للعين وخلايا للقلب ... من الذي يخبر هذه الخلايا بعملها وبمهمتها وبهذا التطور ؟

أليس هو الله القائل : (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) الفرقان.

ثم تنهد قائلاً

صدقني يا مؤمن أنت لا تستحق اسمك ..نحن البشر قد نكذب نسرق ..نزني..نقتل القتيل ونسير في جنازته ..ولكن لا نمشي هكذا عرايا بدون الإيمان بالله ..تلك هي ورقة التوت التي تداري عوراتنا.. أسأل الله لك الرشاد يا ولدي

ولما لم يجد جديد لدى الطالبات أنهى الدرس بالواجبات المعتادة .

-والآن كما تعودنا التطبيق العملي أفضل ألاف المرات من المذاكرة النظرية .

ثم اتجه إلي غرفة المدرسين ملقيا السلام عليهم دون أن يرد الكثير منهم كما هي عادتهم وجلس على مكتبه يتصفح كعادته جرائد اليوم الورقية التي يصر على شرائها رغم تطبيقات الموبيل الحديثة .

لم تمر دقيقة حتى استدعاه مدير المدرسة إلي مكتبه , دلف إلي المكتب منتظرا كالعادة صداما جديدا

-خيرا إن شاء الله يا مستر حسن؟

أشار له حسن بالجلوس

ومن أين سيأتي الخير , وهل منذ أن ألقت بك المقادير ها هنا , جاء منك خيرا يا رجل ؟

خالد بضيق: سيدي الفاضل إما أن تدخل في صلب الموضوع مباشرة أو إما تتركني لحال سبيلي , لم يعد لي طاقة على المهاترات .

حسن باستنكار :مهاترات ؟ هل لك أن تتكلم باحترام يا رجل مع رئيسك في العمل؟

انتابت خالد نوبة انفعال جديدة كعادته وأخذ يدافع عن نفسه

- لم أتجاوز , فقط أسألك , ما الذي حدث حتى يستدعي الأمر استدعائي ؟

يتمالك حسن أعصابه قبل أن يجاوبه

- ألم تكتب في مدونتك , مقالا بعنوان أكذوبة أعمال السنة ؟

خالد: صحيح ولا أنكره ...هل تنكر أن أعمال السنة أكذوبة ؟

-أعمال وتكليفات السنة من صميم عملنا ..كيف تنكرها ؟

- لا أنكرها ..فقط أنكر طريقة استخدامها لإرهاب التلاميذ من أجل مكاسب مالية زائلة .

حسن: ليس بالضرورة أن ما يناسبك قد يناسب غيرك , لكل إنسان منا شئونه الخاصة يا مستر خالد .

-فليتركوني وشأني , أقبل الدروس الخصوصية أو لا أقبلها هذا أمر لا دخل لهم به .

تنهد حسن في يأس ثم أشار له بيده

-كما تريد , ولكن لا تدخل في أية صدامات مع أحد من زملائك , نريدها عملية تعليمية سلسة .

ثم نظر للمدير بنظرة يأس وغادر المكان.

٤

توجه خالد إلي هذا المقهى القديم الذي يتوسط ميدان السيدة زينب بعد قضائه صلاة العصر في مسجدها , كان ينتظر هذا اللقاء الذي يجمعه أسبوعيا بدفعته ورفاق صباه .

مقهى ريشة.

كان الجمع مجتمعا حول شاشة كبيرة تعرض مباراة ما هامة , لذا حينما ألقى التحية بادلوه أصدقائه التحية بحرارة وأفسحوا مكانا بينهم له ليبادره أحدهم

- تأخرت اليوم كثيرا يا رجل

-لم يكن التأخير منى يا سمير منغصات الحياة المعتادة , وها أنا ذا قد تحررت منها.

وهنا التفت إليه فاضل صديق أخر قائلا

- مرحى قمت بطلاق زوجتك ؟

خالد : ليست كل النساء مثل زوجاتك يا زوج الاثنان .

فاضل : شجاعة ومهارة ليست للجميع

خالد : بل تقصد حماقة ترغب أن يقع الجميع بها حتى لا تصبح الأحمق الوحيد في الجلسة ..سحقا لك.

يضحك سمير وفاضل بسخرية ثم يداعبه سمير

-حسنا ابق أنت العاقل الأوحد ودع لنا العبث للنهاية .

خالد باستفسار

- لماذا ؟ستتزوج الثانية أنت الأخر ؟

يمط سمير شفتيه باستهانة

- إن زوجتي تقول دوما حكمة صينية , تقول تطارد الكلاب العربة المارة في الطرقات وتنبح عليها , ولكن هل لو توقفت السيارة ستركب الكلاب ؟ لا أظن .

وهنا اندلع ضحك خالد وفاضل على المقولة

خالد: الزوجة خير من تعرف زوجها أفضل من غيرها .

- حكمة صينية أخري؟

خالد : ربما , ما أكثر حكم الصينيين .

فاضل بجدية :كيف الحال في التعليم هذه الأيام ؟

-لعبة من الأوهام يا عزيزي , كل الأطراف توهم بعضها البعض بأننا في عملية تعليمية حقيقية , نحن كمعلمين نوهم الطلاب أنهم يدرسون بجدية مناهج متطورة تسمو بهم للأعلى

, والوزارة تقوم بوهمنا أننا معلمين حقا , ونتقاضى مبالغ طائلة , هناك حالة عامة من التهاون والتراخي في تحصيل العلم , وكنت أظن أن التطور والتكنولوجيا سيجعلان تلقي العلم أكثر سهولة ومتعة , إذ بالأمر يسير إلي الهاوية .

سمير : لن تتغير أبدا .

خالد : فليتغير الكون إذن .

فاضل : رغم قدومك صغيرا من الواحات ونشأتك هنا ونحن نشعر أنك ما زلت تشعر بالغربة يا خالد , لا تشعر أن هذا مكانك وكأنك خلقت لمكان أخر وزمان أخر .

شغلته كلمة فاضل وطرقت بابا في قلبه لا يريد أن يفتحه , أو يخشى فتحه , باب الحيرة وعلامات الاستفهام التي لا حصر لها ولا عدد

, لماذا هو هكذا ؟ومن هو صاحب الموقف الأصح هو ام المجتمع , وهل هذه أيام القبض على جمرة نار كيفما قال الحديث الشريف ؟حقا تاه منه الفكر والفكرة وأصبحت كل الطرق تؤدي إلي قرار واحد يخشى مواجهة نفسه به ,كل السبل وكل الطرق تؤدي به إلي رحلة ذهاب بلا تذكرة عودة إلي هناك , الواحات , مسقط رأسه الأصلي , سيوه , كل الطرق توصل إلي سيوه .

.....

الفصل الثاني :همس الجذور

١

سيوه يا أبي ؟

قالها أحمد ابنه وهو يشعر بدهشة بالغة من هذا القرار المفاجئ لأبيه , بينما هيام طالبة الصف الثالث الإعدادي لم تنطق بكلمة وكأن الأمر برمته لا يعنيها

خالد: هل الأمر مفاجئ لك إلي هذا الحد يا أحمد ؟

-نحن لا نعرف أحد في سيوه على الإطلاق , نعرف أن لنا جذور هناك منذ ما يقارب التسعين عام , ولكن تخيل بعد كل هذه المدة سنرجع إلي مكان لا ذكريات لنا فيه ولا حتى نقطة بداية نبدأ منها حياة جديدة , ثم ما المبرر لكل هذا؟ عدم ارتياحك لمعيشتنا في القاهرة فجأة ؟أنا لا أتخيل حياتي في مكان أخر خلاف هذا المكان , السيدة زينب ؟

هنا شعرت مريم بتصاعد وتيرة الحديث فتدخلت لتهدئة الأمور

-تحدث بلياقة وأدب مع أبيك يا احمد .

-قام أبي بتربيتنا على الصراحة والوضوح والرأي والرأي الآخر منذ الصغر يا أماه , أنا فقط استعرض رأيي دون تجاوز .

هنا نظر خالد إلي هيام

-وأنت يا هيام , ألا يوجد ما تقولينه ؟

عدلت هيام وضع منظارها الطبي في توتر كعادتها حينما تسأل عن أمر ما

-لا أعرف يا أبي , حقا لا أعرف , لاريب أن هناك أمر ما لا نعرفه حقا , يمثل هذا الأمر عامل هام يجعله سببا في اخذ قرار الهجرة من هنا , ومع هذا أيا يكن الأمر , فإني مطالبة بطاعتك , ولا يعرف أحد أين يكون الخير .

أحمد بسخرية : جيد وهذا يجعلني المارق الوحيد في هذه الأسرة الصغيرة المتحابة .

لا لست مارقا يا هيام أنا فقط أضع الأمور في نصابها الصحيح .

- لا أقصد المعنى الذي وصلك يا أحمد , فقط أحاول أجد مبررا مقنعا لهذا القرار الهام الذي أتخذه أبي.

نظر إليهم خالد في هدوء ثم استأنف حديثه

-تعلمون جميعا كما قال أحمد , تعودنا على صراحة الحديث دون إخفاء أي حقيقة من الممكن أن يتسبب إخفائها في حدوث ضرر كبير لهذه الأسرة , تزداد الأوضاع صعوبة هنا

, أصبح الدخل الشهري للأسرة صغيرا , الي جانب تعاظم طلبات البيت الشهرية , وأنا لن أنتظر حتي يسقط البيت, لذا بذهابنا إلي هناك سنتلقى راتبا إضافيا كبيرا إلي جانب راتب

الحكومة الأساسي , يسمي ببدل الاغتراب , إلي جانب وجود قطعة أرض كبيرة تناهز الخمس وعشرين فدانا بها بيتنا القديم سأقوم بزراعتها وستدر علينا خيرا إن شاء الله .

زفر أحمد أنفاسه في استسلام

-حسنا يا أبي يبدو أنك اتخذت القرار أيضا , لكن هل لي أن أعرف ما هو الاختلاف بين إقامتنا هنا وفي الواحات ؟هل هناك أي ميزة خلاف الراتب الإضافي تجعلك تسعى إلي الرحيل ؟

تراجع خالد إلي كرسيه بحثا عن إجابة تناسب السؤال ثم لم يلبث إن جاوب أحمد في صراحة

-الضغط النفسي يا بني قاربت على الثالثة والأربعون ولم أعد متحملا لضوضاء المدينة وصخبها , أضف إلي هذا أنني مريضا يا بني , قلبي الضعيف لم يعد يتحمل أية انفعالات , وأنا أعتقد أنني سأكون أفضل هناك .

التف حوله الجميع مشفقين عليه , حاوطته مريم بيديها محفزة إياه

-حسنا , ما دام هذا هو قرارك , وبالنسبة لأحمد سيلتحق بجامعة الفيوم وهي اقرب الجامعات إلينا.

يحني أحمد رأسه احتراما لرأيها

- كما تريد يا أبي إلي الواحات إذن يا أسرتي السعيدة .

هيام : متى سيكون الرحيل يا والدي ؟

خالد : في نهاية العام الدراسي الحالي , ريثما ندبر أمورنا.

٢

مرت أكثر من ثلاثة أشهر على هذه الجلسة كان خالد قد قدم خلال هذه الأشهر طلب إلي الوزارة يطلب خلاله نقله ومريم بوظائفهم الحالية كمعلم لمادة الدراسات ومعلمة للغة الإنجليزية لسد العجز في المدارس هناك , والواقع أن الوزارة رحبت بهذا الأمر وبشدة فلن تجد كل يوم زوجين من المجانين يرغبون في الالتحاق إلي سيوه برغبتهم , لذا سهلت لهم الإجراءات ولم تبخل بشيء في سبيل تحقيق هذا الأمر .

بعدها بمدة قليلة استطاع حجز تذاكر الجو باص إلي هناك وأجرى بعدها مكالمة هامة إلي أحد أقربائه هناك ويدعى مسعود هلال لفتح بيتهم القديم وتنظيفه وترتيبه وترميم ما تركه الزمن من أثار عليه .

وأثار حديثه دهشة مسعود الذي لم يعقب إلا بعلم وينفذ يا بن العم.

لم يشأ مسعود الدخول في نقاش لا جدوى منه مع خالد فقد كان يعلم علم اليقين أن خالد يتشبث برأيه دوما فأثر هو الآخر راحة رأسه , فقط كل ما كان يخشاه هو عدم تكيف خالد على الحياة في سيوه.

أما خالد , ظل يسأل نفسه تري ما سبب إسراعه إلي الرحيل إلي سيوه ؟هل بسبب زحمة القاهرة حقا كما قال لأبنائه أم

ذاك الحلم , الحلم الذي كان يراوده منذ فترة قصيرة , والذي كان يري فيه جده الأكبر هلال يجذبه من يده ويدفعه دفعا إلي البيت القديم هناك ,ليجد أسرابا من الجراد الأسود اللون يملأ المكان ويشير إليه جده قائلا

-الجراد يا خالد , الجراد يوشك ان يأكل الأخضر واليابس, احرق الجراد يا ولدي , اجعله يذق نار الدنيا قبل الآخرة .

تكرر الحلم مرارا وتكرارا حتى شعر أن كل الطرق تؤدي إلي سيوه .

٣

طوال الطريق في الجو باص كان أحمد وهيام يمطرانه بالأسئلة حول سيوه , وهو كان يجاوبهم في استمتاع شاعرا بانتقال الشغف إليهم .

أما مريم كانت تراقب صامتة كعادتها مبهورة بقدرة خالد علي الحكي وموهبة الحفظ السريعة لديه , كان خالد باختصار موسوعة متحركة من صغره , يتقن الحفظ والاسترجاع بمهارة لذا ربما كان هذا سبب تميزه في الدراسات الاجتماعية لذا كان حديثه جذابا

خالد : حسنا , سيوه لها تاريخ موغل في القدم

تاريخ عظيم يرجع لآلاف السنين يعبر عن الحضارة والتاريخ منذ عهد المصريين القدماء ووصولا إلى الحكم الإسلامي، عرفت سيوه باسم " بنتا " ونجد هذا الاسم في أحد النصوص المعرفة في معبد إدفو ثم أطلق عليها بعد ذلك اسم " واحة

آمون " واستمرت تحمل هذا الاسم حتى عصر البطالمة اللذين أطلقوا عليها اسم " سانتاريه " ونسب هذا الاسم إلى ما قبل الفراعنة وظلت الواحة تحمل هذا الاسم حتى عصر البطالمة فأطلقوا عليها اسم (جوبتر) وهو اسم احد الإلهة عند الرومان ثم أطلق عليها العرب اسم " الواحة الأقصى

أحمد : وهل كانت سيوه يسكنها الفراعنة فقط يا والدي ؟

أجاب خالد باهتمام

-كان يسكنها جماعة من البربر أيضا يتكلمون اللهجة السيوية واستمروا يعبدون الآلهة المصرية وعلى رأسهم الإله آمون حتى ظهرت المسيحية وبدأ عصر الاضطهاد الديني. ولكن المسيحية لم تنتشر بين الأهالي واستمروا يعبدون الآلهة المصرية حتى دخلها العرب في القرن التاسع الميلادي ومنذ ذلك الوقت دخل الإسلام سيوه ولم تخضع للحكم الإسلامي إلا في العصر الفاطمي.

هيام : وماذا عن زيارة الاسكندر الأكبر لها , أعتقد أنها الأشهر في التاريخ

- زيارة الاسكندر ليست فقط أشهر زيارة في التاريخ القديم يا هيام ,ولكنها تعتبر بدون شك الحدث الرئيسي الذي خلد اسم واحة سيوه في الأزمنة القديمة والحديثة معاً , بدأت زيارة الاسكندر من براتينيوم (مرسى مطروح) الى سيوه في فصل الشتاء بين نهاية شهر يناير ومنتصف شهر فبراير من عام 331 ق.م.

وبعد رحلة شاقة في الصحراء وصل الركب الى الواحة وغمرت الدهشة أعضاءه بمشهد خلاب قدمته أشجار النخيل والزيتون وبالمياه الوفيرة التي تنساب من العيون.

وبعد وصوله معبد آمون صحبه كاهن أمون الأكبر لمعبد الوحي بعد أن تطهر واغتسل بعين الشمس (البئر المقدسة) ، وعندما وصل الاسكندر الأكبر لمعبد الوحي أستقبله الكهنة في المدخل الرئيسي وحملوا موكب آمون وأدوا بعض الطقوس للترحيب بالإسكندر ثم أصطحبه الكاهن الأكبر إلى بيت الإله قدس الأقداس وألقى أسئلته للمعبود آمون وهناك توج ابنا لآمون وتنبأ له الوحي بسيادته العالم وبعد إتمام الزيارة غادر الاسكندر الواحة بعد أن قدم القرابين والهدايا لزيوس آمون ، وقد زاغت شهرة وحى آمون بسيوة في كافة أقطار البحر المتوسط لارتباطه بأحداث تاريخية شهيرة منها جيش قمبيز الفارسي حاكم مصر وقتها .

مريم : امم , جيش قمبيز المفقود

- حقا يا مريم , كان لغزا كبيرا, فبعد تنبوء كهنة الوحي بمعبد أمون بسيوة بموت قمبيز، أرسل جيش من 50 ألف مقاتل إلى سيوه لهدم المعبد وجلب الكهنة كعبيد، لكن منى الجيش بالحظ السيئ ودفن في بحر الرمال الأعظم أثناء عاصفة رملية شديدة، ومنذ سنوات قليلة كشفت العواصف الرملية عن بعض متعلقات ذلك الجيش الذي ساقته الأقدار إلى معركة غير متكافئة مع اعتي عتاة الصحراء ... عواصف الرمال.

هيام :يا له من مصير .

اعتدل خالد ناظرا إليها

-حقا يا هيام , كان مصيرا يليق بجيش طاغية ,ناهيك عن مصيره هو فيما بعد , لقي قمبيز حتفه بإصابة عرضية خاطئة أصابته من سيفه.

أحمد وهو ينظر لساعته قلقا

-أربع ساعات مضت تقريبا , ألا توجد استراحات في هذا الطريق ؟

تضحك مريم

-بل قل أنك جائع فقط , هناك استراحة تلوح في الأفق هناك .

خالد : استعدوا .. سنتوقف مرتين أخريين مثل هذه المرة ثم نصل إلي وجهتنا.

٤

نقطة ماء عكس اتجاه النهر

وصل الجميع إلي سيوه ليلا , وتوجهوا إلي شارع طنغازي حيث يوجد بيت الشيخ هلال جد خالد ,وأثناء الطريق كان أحمد وهيام ينصتون منبهرين إلي لغة أهل سيوه التي تختلط فيها الكلمات المصرية بالأمازيغية , مما جعلهم يشعرون لوهلة وكأنهم في كوكب أخر ,ثم زاد هذا الإبهار حينما وجدوا خالد أباهم يسأل عن العنوان القديم للبيت باللهجة

الأمازيغية نفسها ويتحدث بها في سلاسة مما جعل مريم زوجته تنظر إليه متسألة

-لم أرك يوما تتحدث بالأمازيغية يا خالد ؟

-ربما لم تأتي مناسبة فقط , لكني أتقن بالأمازيغية , سيوه كما تعلمين خليط من عرقيات والسنة عديدة , وكان أبي الراحل يحرص علي أن نتحدث بها من آن إلي أخر في المنزل حتى لا ننساها .

ثم ينظر إلي منزل قديم لاح من بعيد يقف أمامه ويلوح له من بعيد

-ها نحن قد وصلنا , وهذا الذي ينتظرنا عمكم , الشيخ مسعود هلال

ويصل الجمع أخيرا إلي البيت , ينظر خالد إلي مسعود بشوق بالغ وتدمع عيناه , لم يرى بعضهما البعض منذ ما يقارب الخمسة وعشرون عاما

-تغيرت ملامحك كثيرا يا خالد

يعانقه خالد بشوق

-أصبحت عجوزا يا رجل , كيف حالك يا مسعود ؟

-ليس أعجب من حالك يا رفيق الدرب والطفولة , كأنك قطرة ماء أصرت علي المضي قدما في رحلة عكس التيار في اتجاه المنبع الذي خرجت منه .

-ربما لم تجد النقطة ما يثير اهتمامها وشغفها لإكمال الطريق فاختارت الرجوع بكامل إرادتها حيث أتت , ربما لتبحث عما تبقى منها وتجمع شتاته .

-المهم أنها عادت .

ينظر مسعود لأسرة خالد

-أسرتك ؟ كبر الأبناء يا رجل

أخذ خالد يعرفه على أسرته

-هذا أحمد ولدي الأكبر وهذه هيام , وزوجتي مريم .

-مرحبا بكم في سيوه , جئتم ليلا , ورغم هذا غدا نهارا ستعرفون معالم المكان , والآن هيا إلي الدار , لا ريب أنها ستعجبكم كثيرا .

أحمد : لم أرى دارا قديمة من قبل

-الآن سترى واحدة .

دخل الجميع إلي الدار العتيقة التي كانت من دورين , الأول كبير به قاعة واسعة وغرفة استقبال ونوم وحمام ومطبخ صغير وملحق به حديقة شاسعة هي أرض خالد التي يزرعها مسعود ,أما الدور الثاني به أربع غرف نوم واستقبال وحمام وبه بلكون بشرفة واسعة.

كان كبيوت سيوه القديمة التي اعتمدت على البناء بالكيرشيف وهو نوع من الملح المتكلس على طبقات وارتفاع الطبقة

25سم والأسقف من خشب النخيل المعالج في بحيرة الملح وذلك للتخلص من العصارة الجاذبة للحشرات القارضة.

أما أثاث البيت فقد كان مصنوع من أخشاب الزيتون الجافة ع الجريد , والحوائط كانت مدهونة بنوع من الطفلة الخضراء الزبدية .

كان البيت يطل على عدد من شوارع المدينة القديمة ل سيوه المسماة بالشوارع المظللة لكسر حدة الحر.

وسميت بهذا لأنه تم توجيه البيوت بحيث تفتح الشبابيك في الاتجاه البحري ويقابلها فتحات في الاتجاه القبلي لخلق تيارات هوائية وتعمل الأحواش الداخلية والأفنية عمل ملاقف الهواء.

والبيت في سيوه القديمة يستخدم دورات مياه جافة لاستخدام أقل قدر من الماء ويتم الاعتماد على العيون الخارجية فى الحقول .

كان أحمد وهيام يتجولان في البيت وهما لا يصدقان ما تراه أعينهما , كان البيت مرتبا نظيفا يكسوه هدوء محبب للنفس , وفي كل أركان البيت تجد نبتة ما تضفي بعطرها رائحة منعشة في أرجاء المكان .

إما خالد كان ينظر للمكان في شوق ,فرحا كطفل تائه عاد إلي أحضان أمه , يتحسس الجدران والأثاث المجدد برفق وكأنه يخشى خدشه , ينظر إلي مريم ليرى رد فعلها

-ما رأيك ؟

أجابت مريم

-جميل , كل ركن هنا يوحي بالأصالة والعبق .

هنا سأل أحمد باهتمام

-ماذا عن الأجهزة هنا يا عم مسعود ؟

- لا تقلق يا ولدي , كل شيء هنا متوافر , لديك شاشة من الحجم الكبير , حاسب حديث , راديو , واشتراك لمشاهدة الدوري الإنجليزي .

أحمد بسعادة :مرحى , ومتى تم تجهيز هذا ؟

-عابد ولدي ساعدني في كل هذا , هو أيضا في مثل سنك تقريبا ويعرف اهتمامات الشباب .

-إذن سأجد رفيقا لي هنا , بداية مبشرة .

- على العشاء سنتقابل جميعا في بيتي علي مقربة من هنا .

خالد معقبا

-هذا كثير يا صديقي , فقط إننا لا نريد أن ...

يقاطعه مسعود

- لا تريد ماذا ؟ عمك الشيخ هلال أبي ينتظرنا , بعد ساعتين من الآن سأمر عليكم ,هل نسيت

كان بيت مسعود هلال لا يختلف كثيرا عن بيت خالد , وأمام البيت حديقة صغيرة غناء تسيطر عليها روايح مسك الليل

والفل والريحان في خليط جميل , امتدت مائدة الطعام عامرة وكان أولاده الثلاثة عابد و بدور ذات الخامسة عشر عاما ومسك ابنة التاسعة عشر عاما يجلبون أصناف الطعام في سعادة إلي المائدة , بينما سعدى أمهم تشرف على الخدم .

دقائق قليلة ودخل خالد بأسرته وهب مسعود للترحيب بهم .

-أهلا بكم في داركم يا خالد

-بارك الله فيك يا رفيق

ثم ينظر لخالد لأسرة مسعود

-هذه أسرتك بالطبع

يضحك مسعود

-دعني أعرفك بهم , عابد الأكبر في كلية التجارة جامعة الفيوم , مسك الصف الثالث الثانوي , وأخيرا بدور في الإعدادية العامة .

ينظر خالد إلي سعدى

-هذه زوجتك ؟شكرا على كرم الضيافة يا سيدتي يبدو وكأننا التقينا من قبل في صغرنا أليس كذلك يا مسعود؟

سعدى ضاحكة

-منذ سبعة وعشرون عاما إن شئت الدقة يا خالد , منذ عقوبة خطاب الحب والغرام , هل تتذكر ؟

مريم بتعجب

-عشق وغرام , خالد ؟ لم تحكى لي من قبل عن هذا؟

خالد مرتبكا

-يا إلهي ..أنت سعدى

سعدى : حقا أنا سعدى , كبرت يا رجل وأصبحت كهلا .

مريم باستفهام

-وهل كان خالد يكتب خطابات ؟كنت أظنها روايات بوليسية فقط , متى أصبحت رومانسيا يا رجل ؟

مسعود ضاحكا

-تلك حكاية قديمة , كان خالد يكتب لي خطابات أعطيها لسعدى وأدعي أنا أنني كاتبها, لم أكن أمتلك مهارته في الكتابة , وذات يوم أمسكت أمي إحداها وكان الحل أن أنسب الخطاب لخالد حتى أهرب من عقابها وادعيت انه خطاب منه كي أوصله لسعدى .

يضحك أحمد وعابد من الموقف

عابد: يا لك من شرير يا أبي .

-احتشم يا ولد

سعدى :وهكذا عوقب خالد علي جريمة لم يرتكبها وعوقبت إنا بالطبع بينما أقل الأطراف ضررا كان مسعود .

مريم بشفقة

-ويلي , كنت صادق النية إلي هذه الدرجة هههه؟

خالد: حقا , كنت أحمق كالعادة بعدها تركنا المكان ونزحنا إلي القاهرة مع أبي لكي يقوم باستلام عمله في القاهرة .

هنا تحدثت مسك لأول مرة

-يا لها من ذكريات ..والآن من بعد إذن أبي هل نتناول الطعام قبل أن يبرد , تفضلوا , زدتم المكان نورا وبهجة

تربت مريم على كتفها

-بوركت يا بنيتى

ثم تنظر للطعام بحيرة وتسأل سعدى

-هل من الممكن ان تعرفينا إلي الطعام ؟

ثم جلس الجميع إلي المائدة وأخذوا ينظرون بدهشة إلي الأصناف التي أخذت سعدى تشرحها

سعدى وهى تشير لطبق : هذا هو التجلان التيني" وهي عبارة عن مخبوزات تصنع من الدقيق والبلح وزيت الزيتون وهي أكلة تمنح آكلها طاقة كبيرة جداً ومناسبة للإفطار.

مسك وهي تشير إلي الطبق الرئيسي :

- وهذا من أشهر الأكلات "السيوية " والتي تقدم في مختلف المناسبات الـ"اشنجوط" وهو البطة أو الدجاجة "المشوية المغطاة بالكريب أو "الرقاق"، وهو يقدم ليلة العرس للمدعوين عندنا أيضا.

أحمد : الأشنجوط ؟ لا إله إلا الله ويخلق ما لا تعلمون .

سعدى ضاحكة

- تناول إذن الرقاق وتسوية ناكناف مع العصبان المجففة .

عابد وهو يداعب أحمد

-من الممكن أن تأكل الكسكسي باللحم .

هيام : حسنا سأجرب هذا.

تشير مريم إلي طبق ما

- ما أسم هذا الصنف يا سعدى

-هذا يا مريم السلق بالعدس وهذه تعتبر أكلة مغذية جدا لاحتوائها على البروتين والألياف.

أشارت مريم لصنف أخر

-أعتقد سأحب أن أجرب هذا الشواء الغريب,ما أسمه يا خالد ؟

- هذا بو مردم"، وهذه الأكلة أصلها ليبي، وتعتبر أكلة للعزومات، أو واجب للضيافة.

هيام بحذر

-وما هو البو مردم هذا يا أبي, مما يتكون؟

-بومردم عبارة عن لحم خروف صغير السن يا هيام ,يتبل جيداً، ويحفر له حفرة بعمق من نصف إلى متر، ويوضع فيها

حطب مشتعل يعلوه شبكة، يوضع عليها اللحمة المتبلة، ثم تغطى بصاج معدن، ويردم عليها بالرمل.

وتسوى هذه الأكلة في مدة ساعتين تقريبا، ويكون طعم اللحمة المشوي فيها أكتر من رائع، و اللحم طري ويذوب في الفم، ورائحة الشواء تكون قوية وتفتح النفس.

ثم يقدم خالد لها بعض الـ "بومردم"قائلا

- يقدم البو مردم مع الأرز, وهناك طريقتان لذلك، في الأولى يوضع الأرز تحت اللحمة أثناء عملية النشوي لكي يأخذ من طعم اللحم، أو يتم طهي الأرز بمفرده.

أحمد بتعجب لأبيه

-أبي , هل لي أن أعرف , ماذا تعمل تحديدا ؟معلما أم مؤلف روائي أم شيف في سي بي سي سفرة؟

يضحك الجميع ثم ينهي مسعود الحوار

-والآن تناولوا الطعام ولا تضيعوا وقتكم في الحديث , بعدها سنتناول الشاي مع الشيخ هلال بالخارج.

خالد :نسيت , أين هو , لماذا لا يتناول العشاء معنا ؟

سعدي :أصبح يكتفي بالبرتقال والزبادي

الفصل الثالث: ماذا كنا وكيف أصبحنا

١

التف الجميع حول الشيخ هلال والد مسعود في مجلسه الأثير أمام موقد صغير يعمل بالفحم ,أخذ الشيخ ينقل بصره بين أفراد عائلة خالد بشوق بالغ , ثم أخذ يحدث أحمد

-أنت أحمد طبعا

-نعم يا جدي هو أنا .

-اقترب يا ولدي مني .

اقترب أحمد وأخذ الشيخ هلال ينظر إليه بتمعن ويبتسم

-أنت أشبه الناس بأبي الشيخ سلام

-أعرف أن سلام جدي ولكني لا أعرف الكثير عنك يا جدي .

هنا تنحنح خالد بإحراج ثم أجاب أحمد

-الشيخ هلال هو جدك وشقيق جدك عبد المنعم, أي عمي مباشرة يا أحمد .

هيام معقبة

-إذن عمي مسعود بن عمك يا أبي , ومسك وبدور وعابد أبناء عمي ..مرحى ..كم تقت أن يكون لي أبناء عم وأخوة .

مسك: ستسعدين معنا هنا يا هيام .

نظر خالد إلي عمه قائلا له

-ازداد شوقي لك يا عماه , كيف حال صحتك ؟

-بخير , أنت اكتفيت من الاشتياق بمكالمات الفيديو تلك تقصر عليك مسافات الاشتياق واللوعة .

خالد بخجل

- لا أجد عذرا أسوقه إليك يا عمي يكفر عن تقصيري .

مسعود: الدنيا تلاهي يا أبي .

هلال مؤكدا على كلام مسعود

- حقا يا ولدي , منذ عقود اختار والدي الشيخ سلام أن أمكث هنا أراعي الأرض , وأختار عبد المنعم رحمه الله أخي لكي يتعلم في مصر , أما أنا اكتفيت بتعليمي القرآن وأحكامه , مرت الأيام وكان أبي سلام وعبد المنعم يعاودون في الصيف يمكثون معنا ثم يغادرون ,أو نذهب نحن إليهم .

ومع مرور الوقت مر العمر وأختار والدك بعد أن أستقر به الحال هنا أن يغادر إلي القاهرة بعد أن جاءت فرصة عمل له كمعلم بالتربية والتعليم وأخذ أبوكم خالد معه واشترى بيت السيدة ومرت السنون وها نحن ذا .

هنا تحدث عابد في أدب

-المهم , تلاقت الأحبة الآن يا جدي وعادت الفروع إلي مستنبت جذورها .

هلال :إن جذورنا متعمقة في هذا المكان يا أولادي ..نحن هنا من قديم الأزل , منذ أيام جدنا الأكبر سليمان العبادي , أو سيدي سليمان المدفون في ضريحه في أول الواحة .

هنا صفقت هيام مهللة

-مرحي , هل لنا جد من الأولياء الصالحين؟

أجابها مسعود

-نعم نحن جميعا من نسل هذا الشيخ, إن سيدي سليمان كان قاضيا لسيوة وكان شديد الورع والتقوى ويحكى عنه ان الأعداء كانوا يريدون الإغارة على سيوه فما كان منه إلا أن جمع أهل الواحة وذهبوا للجامع وتضرع وصلى بهم ولما لم يصل جيش الأعداء بعثوا برسول منهم ليستطلع الموقف فوجدوا الجيش وقد ضل الطريق وتاه في الصحراء ويحكى عنه أيضا انه شعر يوما بالعطش الشديد بينما كان يمشى في الواحة فضرب الأرض بعصاه فتفجرت عين ماء ويقال أن أمه قبل أن تلده كانت في حب شديد للسمك فوقفت يمامة على شباكها وتركت لها سمكة وهذا هو سبب العادة المنتشرة في سيوه حتى الآن, حيث تأكل أم المولود سمكا خاصة لو كان المولود ذكر ا.

عابد :يا له من تاريخ عظيم يدعوا للفخر .

على الجانب الآخر كانت مريم وسعدى تتبادلان حديثا حول أهل سيوه

سعدى: قديما يا مريم كان البنات يتزوجن على سن التاسعة أو العاشرة، سواء كان الزوج شيخا كبيرا، أو شابا، لكن رفع الحكومة في العهد الملكي لسن زاوج البنات إلى السادسة عشرة، أدى للحد من تلك الظاهرة.

وليلة الزفاف ترتدي العروس سبعة فساتين فوق بعضها، مختلفة الأول أبيض شفاف، والثاني أحمر شفاف، والثالث أسود، والرابع أصفر، والخامس أزرق، والسادس من الحرير الوردي، والسابع الخارجي يكون مطرزا بكلف حول الرقبة.

مريم :وهل لميلاد الأطفال عادات مختلفة ؟

- لحظة ميلاد الطفل وعندما تضع السيدة السيوية مولودها،تستلقي على كليم مفروش على الأرض، لمدة أسبوع أو عشرة أيام، وتأكل السمك المملح، كتقليد موروث، تيمنا بولادة »سيدى سليمان« إمام السيويين وواحد من أفضل الشخصيات في تاريخ الواحة وجدنا المباشر.

أما عن عادات الموت ,يعتقد أهل الواحة أن عين المرأة التي يموت عنها زوجها تكون قوية، وتجلب الحسد، لذا تعيش فى عزلة لأربعين يوما، ولا تتزوج قبل مرور عام على وفاة زوجها.

تضحك مريم

-يا لها من عادات غريبة

ثم تنظر لمجلس الرجال

-لا ريب ان الحديث شيق هناك .

كان الشيخ هلال يواصل قص تاريخ الواحة على الأحفاد وهم يستمعون بشغف

- تاريخ عائلتنا في سيوه يمتد إلي سنين وعقود طويلة , كان أحد أجدادنا من الأربعين الكبار الذين بنوا قلعة شالي للدفاع عن سيوه

، لفرط معاناتهم من هجوم البدو والعربان للسلب.

وكان أحد أحفاد هذا الجد من الذين ساهموا في نزع أحد حكام سيوه القدامى علي بالي من كرسي الحكم ,وسبب هذا أنه كان هناك صراع ممتد بين أهل شرق سيوه وغربها واشتد الخلاف في عهد »محمد علي« في 1816 ولما شعر «على بالي» أحد كبار غرب سيوه بالهزيمة، فقرر الاستعانة بجيش محمد على الذي قضى على مقاومة أهل شرق سيوه، وقرر أن يدفعوا الجزية، ولكن أهل سيوه قتلوا «على بالى» بعد ذلك لأنه جعلهم تابعين بعدما كانوا مستقلين عن سلطة الدولة، لكن «محمد علي "كان مصراً على إخضاعها لسلطة الدولة المركزية، وأجبرهم على دفع جزية 12000 ريال، وحمولة ألف جمل من البلح.

ثم يتنهد قائلا

-الخلاصة , لا أقص كل هذا من أجل تمضية الوقت , بل لكي يعرف كل منكم تاريخه وأصله , وحتى تنقلون إلي أولادكم مستقبلا كل ما سمعتموه لكي يرسخ في وجدانهم أننا

هنا على أرض سيوه لا يوجد فرق بين أمازيغي ومصري أو مسلم أو مسيحي الجميع هنا في خدمة هذا المكان.. لا يخشى شئ حتى لو كان

يتجه ببصره لخالد

- الجراد الأسود

هنا توقف خالد عن شرب الشاي وأخذ ينظر لعمه بتوتر غريب , لقد ذكر عمه الجراد الأسود, هذا الحلم الغريب الذي يراوده دوما ..أقتل الجراد الأسود يا ولدي , حلم جده الشيخ سلام .

وحينما لاحظ مسعود توتر خالد سأل أباه

- ما المقصود بالجراد الأسود يا والدي ؟

ابتسم الشيخ هلال

-الجراد الأسود يا مسعود هم مثيري الفتن والمشاحنات والبغضاء ممن يعكرون صفو الناس , هناك من يعتمد في تعكير صفوهم بالدين ..فيرتدون ثوب السلفية والجهادية, وهم من قال فيهم الحبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتي في آخرِ الزمانِ قومٌ حُدَثاءُ الأسنانِ، سفهاءُ الأحلامِ، يقولون من قولِ خيرِ البَرِيَّةِ، يمرُقونَ من الإسلامِ كما يمرقُ السهمُ من الرَّميَّةِ، لا يجاوزُ إيمانُهم حناجرَهم، فأينما لقيتُموهم فاقتُلوهم؛ فإنَّ قتلَهم أجرٌ لمن قتَلهم يومَ القيامةِ".

"وقوله أيضاً "إذَا رَأَيْتُمُ الرَّايَاتِ السُّودَ فَالْزَمُوا الأَرْضَ فَلا تُحَرِّكُوا أَيْدِيَكُمْ، وَلا أَرْجُلَكُمْ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ ضُعَفَاءُ لا يُؤْبَهُ

لَهُمْ، قُلُوبُهُمْ كَزُبَرِ الْحَدِيدِ، هُمْ أَصْحَابُ الدَّوْلَةِ، لا يَفُونَ بِعَهْدٍ وَلا مِيثَاقٍ، يَدْعُونَ إِلَى الْحَقِّ وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ، أَسْمَاؤُهُمُ الْكُنَى، وَنِسْبَتُهُمُ الْقُرَى، وَشُعُورُهُمْ مُرْخَاةٌ كَشُعُورِ النِّسَاءِ، حَتَّى يَخْتَلِفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يُؤْتِى اللَّهُ الْحَقَّ مَنْ يَشَاءُ".

عابد بأدب : هناك من يضعف هذا الحديث عن رسولنا الكريم يا جدي إن سمحت لي .

-أتفق معك يا عابد , هناك من يؤكدوه وهناك من يصححه عن نبينا الكريم , ولكن حينما تري كلاما مأثورا جاء منذ ما يتعدى الألف وأربعمائة عام يصف بدقة في عصورنا هذه ما يحدث الآن من تطرف وإرهاب , هل وقتها ستتركه لأنه غير مؤكد المصدر ؟ لا نأخذ به كقول يرشدنا إلي صحيح الدين حتى لو كان كلاما مأثورا متداول .

أحمد :هذا يا جدي عن العصبية والتطرف الديني , فماذا عن التعصب للعرق والقبيلة والأصل ؟

نظر الشيخ هلال إلي أحمد برضا

-بوركت يا ولدي , والله لا يدمر الأمم إلا هذين التعصب الديني والتعصب القبلي , أما الديني فقد تحدثنا عنه , أما التعصب القبلي فقد جاء في السنة النبوية وصحيح البخاري أن رجلين من المهاجرين والأنصار تشاجرا فَقَالَ الأنصاري يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ المهاجري يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: "ما بال دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ

دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَة." و"كسع" معناها أنه تكلم فرماه على إثر قوله بكلمة يسوئه بها.

-هل تفكرنا في معنى كلمة (منتنة (ولو لدقائق فقط يا أولادي ؟ كل إنسان يعلم ما معنى كلمة نتن والنتنة هي الجيفة أو الشيء المتعفن الذي لا يستطيع الإنسان الاقتراب منه, والشيء المتعفن هو المتهالك الفاسد الذي لا جدوى منه .

خالد مؤكدا

-هو تشبيه لو تعلمون عظيم ,منفر من هذا السلوك فلو شعر كل عنصر بعلوه على العنصر الآخر لتعفنت العلاقات بين الناس.

مسعود : والواضح من الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم يصف العنصرية بأنها جاهلية، فالعرب قبل الإسلام كانت تتفاخر بأنسابها وكل شخص يقاتل بالباطل في سبيل الدفاع عن قبيلته، وهو ما سُمِيَ بالعصبية القبلية. وكان من بين أهم أغراض الشعر الذي برع فيه العرب هو الفخر وغالوا في ذلك غلوا شديدا وهو ما نحاربه هنا في سيوه من حيث المغالاة في القوميات بين العرب والأمازيغ.

يستأنف الشيخ هلال حديثه

-وكان النبي صلى الله عليه وسلم – وهو الشريف - أول من أسقط هذه العنصرية حين قال "إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة".

وذات يوم اجتمع الصحابة في مجلس فقال أبو ذر: أنا أقترح في الجيش أن يفعل به كذا وكذا فقال بلال: لا .. هذا الاقتراح خطأ ، فقال أبو ذر: حتى أنت يا ابن السوداء تخطئني فقام بلال مدهوشاً غضبان أسفاً ...وقال: والله لا رفعنك لرسول الله عليه السلام.. فتغير وجه النبي وقال : يا أبا ذر أعيرته بأمه ...إنك امرؤ فيك جاهلية.!! فبكى أبو ذر وقال: يا رسول الله سل الله لي المغفرة ..ثم خرج باكياً من المسجد ...وأقبل بلال ماشياً .. فطرح أبو ذر رأسه في طريق بلال ووضع خده على التراب وقال: والله يا بلال لا أرفع خدي عن التراب حتى تطأه برجلك. أنت الكريم وأنا المهان ....!!فأخذ بلال يبكى .. واقترب وقبَّل ذلك الخد ثم قاما وتعانقا وتباكيا.

خالد :كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية" (صحيح مسلم) ..فالعصبية هي أساس الفتن وتجعل الناس في فرقة وتناحر والدعوة لتجنبها واجبة حتى تسلم أمتنا من النعرات العصبية لطائفة أو مذهب أو وطن.

نظر الشيخ هلال إلي السماء قليلا ثم قام من مجلسه منهيا الحوار

-تخطيت موعد نومي اليوم بسبب هذه الجلسة, تصبحون على خير , أراكم في صلاة الجمعة غدا إن شاء الله .

٢

ظل خالد أثناء العودة يسأل نفسه عن الجراد الأسود ..هل الشيخ هلال له هذه الشفافية العظيمة ؟ حقا كان يسمع من صغره عن عمه الشيخ هلال وتميزه في تفسير الأحلام والمنامات ولكنه لا يعرف تحديدا كيف عرف بشأن رؤياه ..يا لك من رجل يا عماه

قالها بصوت عال وهو يستلقي على سريره وهو يخلد للنوم فلفت انتباه مريم التي سألته

-من هذا ؟عمك الشيخ هلال ؟

-نعم

-ماذا حدث ؟

-ذكر لي الجراد الأسود الذي أراه في حلمي .

مريم بتوتر

-ولكنك لم تقص هذا الحلم إلا لي .

-وهذا أكثر ما يقلقني , أشعر أنني رغم اختياري قرار عودتي , أنني لم أختار هذا القرار برغبتي وكأنني أساق إلي اختياره رغما عني .

تطمئنه مريم

-أنت فقط منهك من الرحلة وعناء السفر والتفكير فيما هو قادم , فقط استرح ودعك من هذه الأفكار .

ينظر لها يحتضنها كعادته حينما يكون متوترا يلقي برأسه على كتفها ويتنهد ويردد

-ربما .

٣

بدأت صلاة الجمعة كما هو معتاد وكان خالد قد ارتدى جلباب طويل من ثياب مسعود الذي جاء لمرافقتهم وقد رافقهم على عصاه الغليظة يتوكأ عليها الشيخ هلال

اتجهوا إلي المسجد للصلاة وسماع الخطبة .

كان الخطيب مفوها لذا شد انتباههم حديثه عن التعصب ونبذ الفرقة والعنف والدعوة للسماحة , خاصة حينما قال

- أيها الناس نبـــــــــذالاسلام للعنف و الكراهية

لقد جاءت رسالة رسول الإسلام محمد (ﷺ) داعية إلى التسامح والاعتدال ونبذ كل مظاهر العنف والتشدد ، فهذا رسول الله (ﷺ.) ينهى عن الغلو ، ويحذر من عاقبته فيقول (ﷺ) : { إياكم والغلو؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوّ في الدين }، وقال (ﷺ: " هلك المتنطعون " وكررها ثلاثا ، والمتنطعون هم المتعصبون والمتشددون الذين يتجاوزون حد الاعتدال في أقوالهم وأفعالهم ؛ لذا فقد جاءت دعوته (ﷺ) بالوسطية والاعتدال وما أجمل ما وصف الله به نبيه (ﷺ) في قوله تعالى: {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين.

-أيها الناس إن من المآسي والآثار المذمومة التي تنتج عن التخلق بالعنف، وفظاظة النفس، وقسوة القلب، أنها تذهب بكل خير لدى صاحبها، وتفقده ثمار خصاله الكريمة، وسجاياه القويمة، بل وتمحو كل استجابة طيبة له في النفوس، ومن ثم يتحول حب الناس له إلى بغض وانتقاد، والتفافهم حوله إلى كراهية وابتعاد، من أجل ذلك كان النبي (ﷺ) يرغب في الرفق واللين، في مقابلة العنف والشدة، امتثالا لقول الله تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن، فعن عائشة، رضي الله عنها) : أن يهود أتو النبيّ (ﷺ) فقالوا: السّام عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم. قال : (مهلا يا عائشة ، عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش) قالت : أولم تسمع ما قالوا ؟ قال : (أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم ، فيستجاب لي فيهم ، ولا يستجاب لهم فيّ.

-أمة الإسلام والمسلمين, لقد أكدت الشريعة الإسلامية على نبذ كل أشكال العنف وصوره وحذرت من الإقدام عليه ، وسلوك طريقه ، لما له من آثار سيئة على الفرد والمجتمع ، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذبه جذبه ، حتى رأيت صفح، أو صفحة عنق رسول الله (ﷺ) ، قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته ، فقال: يا محمد أعطني من مال الله الذي بيدك ، فالتفت إليه ، فضحك ثم أمر له بعطاء).

وكما حارب الإسلام العنف فقد حارب أيضا العنصرية التي هي أثر من آثار العصبية الجاهلية ، وأكد أن الناس جميعا في

الإنسانية سواء ، متساوون في الحقوق والواجبات ، لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى ، فعن أبي نضرة (رضي الله عنه)، قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في وسط أيام التشريق فقال: (يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى...).

ولقد أكد القرآن الكريم على وحدة الأصل البشري للناس جميعا مهما اختلفت ألوانهم وألسنتهم، وتنوعت أفكارهم، وبلدانهم ، قال تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ، فميزان التفاضل والكرامة ليس مرده إلى نسب أو مال، أو جاه أو سلطان ، بل إلى صلاح الإنسان وتقواه ، فالدين الذي يجعل التعارف والتواصل بين الناس غاية من غايات خلقهم لا يمكن أن يدعو إلى كراهية بين الناس قال (ﷺ) : | إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: (إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب) ، كما نهى الإسلام عن العصبية حين وصفها بوصف تنفر منه الطباع السليمة ، قائلا عنها : (دعوها فإنها منتنة).

-فجأة ارتفع صوت أحد المصلين يقاطع الخطيب قائلا

-اصمت أيها الشيخ الخرف ..فوالله إن حديثك ليكتم الهمة في النفوس ويظهر المسلمين مظهر المسلم الضعيف المتقاعس عن نصرة دينه وحاشا لله أن نكون مسلمين ضعفاء .

هنا التفت الجميع إلي مصدر الصوت ليجدوا رجلا ناهز على الثلاثين من عمره ملتحي يرتدي السواد وخلفه مجموعة من الرجال يرتدون مثله أيضا .

تقدم الرجل من المنبر في سرعة ورجاله خلفه يتخطون المصلين بقسوة وهو يأمر الإمام

-انزل يا داعي الهزيمة

هنا وقف مسعود في قوة في وجوههم صارخا

-توقف يا فضلون عن هذا العبث , تحشم نحن في المسجد يا رجل , وإلا ألقيت بك خارجا .

ليتحداه فضلون ويجذب مسعود من جلبابه

-أرني يا بن خادم الأضرحة شجاعتك .

وهنا اندفع عابد بقسوة لاكما فضلون في صدره

-توقف يا فضلون وابعد يدك عن أبي

وعم الهرج والمرج المكان قبل أن يرتفع صوت الشيخ هلال بقوة

-اصمتوا , اصمتوا جميعا

يصمت الجميع لكلمة الشيخ هلال بينما خالد ينظر لفضلون في ذهول عجيب ويردد

-الجراد الأسود , والله صدقت الرؤيا .

ليأمره عمه بالسكوت

-اصمت يا خالد

ثم ينظر إلي فضلون أمرا

-والآن خذ كلابك وارحل من هنا يا فضلون

فضلون بدهشة

-كلابي ؟ ماذا تقول أيها العجوز ؟

هنا تدخل أحمد في الحوار

- كما سمعت يا هذا ..أم تحب أن نريك كيف ترحل ؟

صرخ الشيخ هلال

-اصمت يا أحمد

ثم يلتفت إلي فضلون

-والآن هل ستخرج على قدميك ؟أم محملا على أعناق رجالك ؟

ينظر فضلون له بتحدي بينما يقف المصلين بتحفز لفضلون ورجاله قبل أن يأمر رجاله بالرحيل .

-هيا يا اخوة , هذا مسجد ضرار لا تصح لنا فيه صلاة.

٤

اجتمع الجميع في بيت خالد بعد صلاة الجمعة يحتسون القهوة , وكانت أحداث المسجد هي المهيمنة على حديثهم , فيما بدا خالد أكثرهم توترا مما استرعى انتباه مسعود الذي نظر إليه في تساؤل

-لم أعهدك متقلب المزاج إلي هذا الحد ,ماذا دهاك يا خالد؟

أحمد في أدب

-حقا يا أبي ما الذي حدث؟ هم فئة من المتشددين دينيا وتم طردهم من المسجد وانتهى الأمر .

أجابه خالد بتوتر

- لا أدري يا ولدي ماذا دهاني حينما رأيتهم ؟ ربما لعدم تخيلي أن هناك مثل هؤلاء رغم التشديدات الأمنية على أصحاب هذه الأفكار العفنة , ربما تأثير المفاجأة فعلا .

هنا نظر إليه الشيخ هلال في سخرية قائلا

-هل كنت تظن أن سيوه بعيدة عن تأثير القاهرة الحضاري ؟سيوه مثلها مثل أي مكان أخر , بها الصالح والطالح , بها دعوات انشقاقية عن مصر بدعوى الحفاظ على القومية الامازيغية , وبها من يدعون أنهم حماة الدين والإسلام , بها السلفية وبها أيضا الصوفية ,

تكمن المشكلة يا بن أخي داخلك أنت , أنت فقط , يا من ترسم عالم وصروحا من الخيال لا وجود لها على أرض الواقع , يا بني لا وجود لعالم مثالي كل من فيه يتحلى بالمثالية والطيبة والتنفيذ الدائم لقواعد الأخلاق , الصراع الحضاري المادي صبغ الجميع بصبغته , ومن يزل يحتفظ بعقله وسط هذه المتغيرات هو معجزة قائمة في حد ذاتها .

خالد بصدمة

-لماذا درسنا ما درسناه إذا في الجامعات ؟لماذا درسنا أن المعلم يجب أن يكون رسالة وقدوة قبل أن يكون رسولا للعلم ؟ ما الذي جعلني مصرا على تنفيذ ما درسته وأحاول أن أعلمه لتلاميذي في الوقت الذي يأتي من خلفي زملاء يصرون على محو ما فعلته , لماذا تسببت مبادئي وتعليمي وخلفيتي الدينية والتزامي أن أبدو كعبيط القرية وسط هذا المجتمع ؟

أجابه الشيخ هلال

-لأنك يا ولدي كنت تدرس ما هو من المفترض أن يكون وليس ما هو كائن فعلا على الأرض , أنت موكل بشرح وبث علمك ومبادئك لتلاميذك حتى لا تقع في طائفة كاتم العلم , أما استجابتهم لتعاليمك وإصلاح المجتمع فهذا أمر يخضع لاقتناعهم برسالتك , أنت أديت ما عليك وأعذرت إلي الله بتأديته , هذا فقط دورك وليس من المفروض أن تجنى حصيلة ما زرعت في التو واللحظة ..ربما لن تجنيه في حياتك أيضا ..ربما تجنيه بعد موتك , فى صورة طبيب أو مهندس أو حتى معلم كبر وشب على علمك يا خالد.

نظر إليه خالد طويلا ثم سأله

-ماذا عن رؤية الجراد يا عماه ؟

-الجراد؟ الجراد هو مخاوفك التي يجب عليك مواجهتها يا بني , في مصر أنت لم تتحمل الضغوط وكنت تريد أن تصنع مجتمعا فاضلا من ألا شيء وحينما لم تنجح في صنعه أو أقله صنع نماذج صغيرة منه في تلاميذك لكي تشعر بالرضا عن نفسك أثرت الهروب من الضغوط وترك كل هذا والرجوع إلي سيوه والبداية من جديد, ظنا منك ببداوة المجتمع وشعورا بأن تحقيق هدفك سيكون هنا أسهل ما دمت تحررت من قيود القاهرة , فأذ بك تجد ما هو أسوء من هذا , إلي أين المفر هذه المرة ؟هل إلي مكان أخر ؟أم إلي عالم القصص الخيالية التي تكتبها وترسم فيها عوالم وأبطال لا وجود لها في أرض الواقع تحقق فيها انتصارات زائفة , راجع نفسك يا ولدي وكن بطل قصتك الحقيقية متحملا كل مشقتها.

يتنهد خالد في قوة محاولا الخروج من التوتر

-من هو فضلون ؟

أجابه مسعود

-فضلون واحد ممن ابتليت بهم سيوه , كان يعمل بالسياحة في سيناء , ثم تواترت أخبار أنه ترك المجال هناك واتجه لمجال تهريب البضائع الممنوعة عن طريق الأنفاق التي أغلقت بعد هذا , انقطعت أخباره فترة ,ثم فوجئنا جميعا بعودته ملتحيا إلي سيوه ومعه هذه الحفنة من الرجال وقد استأجر مزرعة شاسعة يجفف فيها التمور ويعلب فيها زيت الزيتون , كان

الأمر طبيعيا إلي هذا الحد حتى وجدناه يستقطب العديد من شباب القرية للعمل في مزرعته بأجور مبالغ فيها ولا يكاد يمر عدة أيام إلا ونجد الشاب قد أطلق لحيته ويخاطب فضلون بمولانا .

سأله أحمد

-ولم يعرف أحد من الأمن ما الذي يريده؟

أجابه عابد

-لا توجد أي بوادر يظهرها توحي بأنه ليس أهلا للثقة , بالعكس , هو من يوجد فرص عمل لأولادهم ويرشدهم إلي صحيح الدين , هناك أمر ما مريب لكن لا أحد يعرف حقا ما هو , إنه حذر لأبعد حد تتخيله وعلاقته بالأمن جيدة .

بدت معالم الحيرة على وجه الشيخ هلال قائلا

-الأغرب من هذا رجوعه ثريا يمتلك الأموال ويتاجر بها في كل أرجاء الواحة والواحات المجاورة , وتاريخه كله معلوم للقاصي والداني ,بأنه كان فقيرا من أصل متواضع.

مسعود : الأمر الأشد غرابة إصراره الغريب والمتكرر على أن يستأجر مزرعة خالد إلي درجة عرضه أموالا طائلة للحصول عليها .

خالد بدهشة

-لماذا مزرعتي أنا تحديدا , هناك العديد من المزارع التي تحيط بنا , لما لم يستأجر إحداها؟

مسعود :حقا لا أعرف السبب , الأمر مثير للحيرة وعلامات الاستفهام .

هز أحمد كتفيه بلا مبالاة

-لا أري في المزرعة ما يجعلها مميزة إلي هذا الحد , تبدو عادية جدا .

أنهى الشيخ هلال الحوار كعادته قائلا

-انتهى النقاش , والآن يا خالد أنت تدرك ما سيواجهك في الأيام القادمة , إما أن تواجه وتتعايش مع الحياة , وإما أن تتوقع في نفسك وتلقي اللوم على المجتمع , قضي الأمر .

.....

الفصل الثالث: تمضي بنا الأيام

1

مرت عدة شهور على رجوع خالد إلي سيوه ,كان قد أتم خلالها استلامه لعمله في إحدى المدارس الإعدادية بالواحة ومريم كذلك التحقت بالعمل أيضا في المدرسة الابتدائية هناك ومع موسم الدراسة ازداد الاثنين تألقا وكانا موضع حديث وإعجاب الجميع , في الواقع كان خالد ومريم من هذا الطراز النادر من المعلمين الذين يحرصون أشد الحرص على إتمام ما كلفوا به بضمير مفرط في الحساسية ,إلي جانب أن جو سيوه التعليمي ومحدودية العدد هناك جو هادئ بطبعه لا تشوبه مؤامرات المعلمين مثل القاهرة والصراع على الدروس والحوائط الممتلئة بقيصر التاريخ أو كنج الإنجليزية , لذا كان هناك جزء في نفس خالد الثائرة دوما قد استكان وشعر هذا الجزء أنه ليس في الإمكان أروع مما كان .

أما عن هيام فكانت عاشقة للتاريخ كأبيها فاستطاعت التكيف على المكان بسرعة بصحبة بدور ومسك أبناء مسعود اللتين استطاعا أن يجعلان هناك زخما في يومها العادي وأن يأخذها كل فترة لزيارة معلم جديد من معالم السياحة في سيوه كمعبد التنبؤات ومعبد أمون وجبل الدكرور وغيرها .

لم يتبقى من الأسرة إلا أحمد الذي كان يجد صعوبة حقيقية في التكيف لولا عابد الذي كان يملأ عليه يومه وجامعته في

الفيوم التي كان يبيت فيها بالأسابيع ويرجع إلي سيوه في أجازته الشهرية المعتادة .

الأمور تستقر بالأسرة خاصة مع اهتمام خالد بزراعة الأرض التي بدأت تدر عليهم دخلا معقولا ساهم في إحداث بحبوحة من العيش لا بأس بها إلا أنه كان أشد ما يؤرقه فضلون ورجاله , كان يتحاشهم قدر المستطاع ويحاول نسيان ما حدث في المسجد ونسيان رؤية الجراد الأسود قدر المستطاع وكأنه ينأي بنفسه عن دخول أي مواجهة معهم .

لذا حاول قدر المستطاع أن يشغل نفسه يوميا في أنشطته المعتادة التدريس والزراعة ومحاولة إتمام روايته التي تأخر في إكمال كتابتها بسبب ظروف النقل ويلح عليه صاحب دار النشر التي يتعامل معها في إكمالها .

ولم تكن كتابة الروايات تدر عليه الكثير ولكن كانت هوايته المحببة التي يمارسها بانتظام ويعشقها بشدة , فهي متنفسه الوحيد كما يقول الشيخ هلال .

بدت كل الأمور تسير بأريحية كنهر يسير من المنبع إلي المصب لولا بعض الجنادل التي تقابله فتعكر صفو رحلته وفي حالة خالد كان الجندل الذي حان موعد ارتطامه به هو فضلون الذي وجده ذات يوم يقرع بابه ويطلب مقابلته وهكذا بدأ القدر في رسم خطوات خالد

كانت وقفة فضلون المستفزة برجاله كافية بإطلاق عنان الغضب في نفس خالد لولا أنه تمالك نفسه حتى لا يبدوا أنه متوتر من المفاجأة ونظر له قائلا

-فضلون ؟ أية ريح ألقت بك إلي هنا يا شيخ فضلون

فأجابه فضلون بحزم

-دعنا نلقي السلام أولا ..السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا مستر خالد .

-وعليكم السلام

أشار لهم بالدخول إلي حديقة البيت فدخلوا جميعهم واتخذ فضلون مجلسا مواجها لخالد الذي أخذ يبادلهم النظر بهدوء قبل أن يسألهم

-خيرا إن شاء الله

فضلون بابتسامة

-نحن لا نأتي إلا بالخير يا مستر خالد

-على حسب يا فضلون

-على حسب ماذا؟

-على حسب ما قدمت من أجله يا رجل , هات ما عندك ؟

تنهد فضلون قبل أن يكمل

-سبق وأتينا إلي السيد مسعود طالبين منه استئجار المكان , تحديدا المزرعة الملحقة به .

-سبق لكم من قبل استئجار المكان عام ٢٠١٢ يا فضلون ثم تركتموه

أشار فضلون بأصبعه مؤكدا

-لم نترك المكان بإرادتنا , بل تم إلقاء القبض علي وقت عزل الرئيس السابق على حين غرة ثم انتهزها مسعود فرصة واستولى على المكان

-امتنعتم عن الدفع نظرا لمحبسكم ستة أشهر كاملة فأمرته وقتها بأخذ المزرعة .

-وبعدها تم الإفراج عنا وطالبت مسعود بالأرض لكنه لم يوافق.

-لأن عقد إيجاركم أنتهي رسميا بالتالي ألت الأرض إلي مالكها الأصلي وهو أنا .

تماسك فضلون أمام هدوء خالد ثم قال

-حسنا سنحاول غض البصر عن هذه المهاترات والبدء ببداية جديدة , كم تريد ثمنا لإيجار المزرعة ؟

-ليست لدي مزارع للإيجار , والسؤال لك أنت , المزارع كثيرة في سيوه , لماذا أرضي تحديدا ؟

فضلون بغضب

لقربها من مزارعي الأخرى ومشروعاتي , وأريد التوسع في زراعة التمر والزيتون .

-اعلم أن هناك العديد من المزارع بجوار أرضك , سؤالي واضح , لماذا هذه الأرض تحديدا

-ليس من شأنك هذا الأمر , فقط اطلب ما تريده تجده حاضرا .

هب خالد واقفا

-ليس عندي مزارع للإيجار الأمر يثير الشك والريبة يا فضلون .

فضلون متوعدا خالد

-حسنا , لنا عودة وجعبتي لم تنفذ بعد, هيا يا رجال

وانصرف فضلون تاركا خالد يفكر في السر وراء إلحاح فضلون في إيجار المزرعة .

.....

الفصل الرابع: ما تحت الأرض

1

-يا له من أمر عجيب

قالتها مريم وهي تفكر في إصرار فضلون على

تأجير المزرعة من خالد , أما عن خالد كان يستلقي بجوارها مفكرا في الأمر ..ما الذي يجعل فضلون يصر على أن يكون له قدم في المزرعة إلي هذه الدرجة .

ثم التفت إليها متسائلا

-ما الذي يجعلك ترين الأمر عجيبا يا مريم؟

-خلال هذه الفترة القصيرة أقمت علاقات مع العديد من الأسر هنا بفضل سعدى زوجة مسعود , لاحظت أن سيرة فضلون هذا تفرض نفسها على كل منزل هنا , والأغرب أن هناك اتفاقين على شخصية فضلون , كل اتفاق يناقض الثاني ,

الأول احتياجهم الدائم لفرص العمل عند مزارع فضلون, والثاني ذكره دوما بخوف وريبة ورهبة لدي الجميع وكأنه إله .

اعتدل جالسا وهو يحدق إليها

-إصراره غريب حقا لذا يبدو الأمر وكأنه يريد أرضي أنا بالذات دون غيري .

لاحظت مريم تفكيره العميق فجذبت انتباهه لنقطة أخري

-هل أكملت الرواية الجديدة أم انشغلت كعادتك كلما استغرقت في مشكلة من مشكلاتك التي لا تنتهي ؟

- اقترب الأمر , هذه الرواية هي أهم عمل أكتبه , لذا أريد التركيز في الكتابة حتى لا تصبح مترهلة كحياتي العادية .

ثم سألها فجأة

-كيف حال الأولاد يا مريم ؟

-بخير , هيام بصحبة بدور ومسك وأحمد بصحبة عابد , والآن نم يا رفيق العمر حتى تنعم بقليل من الراحة

يضحك

-الراحة ؟ يا لها من كلمة , كم أتمنى قليل من الراحة .

ووضع رأسه على الوسادة ونام , ولدهشة مريم استغرق في النوم بسرعة غريبة , وانتظم نفسه فاستدارت ونامت هي

الأخرى , أما هو كان في أحد أحلامه العجيبة , كان يرى نفسه في مزرعته وجده سلام يقف بجانبه ويحدثه

-لا يمكن أن تستمر الحقائق مدفونة أبد الدهر يا بني , يوما ما تنكشف كل الحقائق .

-أشعر بالحيرة يا جدي؟ أية حقائق التي ستنكشف ؟

يشير له جده إلي نقطة من أرض المزرعة فيري رجلا من ظهره يمسك فأسا ويساوي الأرض

-حقائق مثل هذه يا ولدي

ينظر خالد للرجل الذي يعبث بأرضه قبل أن يدير الرجل وجهه إلي خالد ليظهر وجه يمقته خالد , وجه فضلون , ليهب مفزوعا من نومه مرددا

-فضلون , فضلون ثانية يا جدي ؟

يستغرق في التفكير ثم يحاول النوم فيجافيه النوم ويتقلب كمن ينام على فراش من الجمر ثم يتخذ قراره ويهب واقفا مغادرا الغرفة بحذر حتى لا تستيقظ مريم وقد اتخذ قرارا هاما.

2

ارتدي خالد رداء ثقيلا لبرودة الجو في أكتوبر في هذا التوقيت وخرج إلي المزرعة الخلفية ووقف تماما كما كان يقف في حلمه مع جده واخذ يتخيل أنه ينظر في نفس الاتجاه وإلي نفس النقطة التي كان ينظر فيها إلي فضلون حيث كان

يقف الأخير في الحلم , نقطة عادية مجرد تعريشة عادية لاستراحة عمال المزرعة وتناول غذائهم , نظر إلي السماء المكفهرة بالغيوم المبكرة رغم أن الشتاء لم يحل بعد وبدأت قطرات المطر الخفيفة تتساقط عليه ثم ذهب إلي التعريشة وجلس تحتها يتفحصها بينما ازدادت الأمطار غزارة , كانت التعريشة تمنع الكثير ومع هذا وجدت الأمطار مسلكا إليها فبدأت في غمر المكان , تحولت الأمطار سيولا فاضطر هو إلي مغادرة المكان عائدا إلي الداخل , ونام بجوار المدفأة الخارجية .

وفي الصباح غادر المنزل ووقف ينظر إلي المكان بعد انتهاء المطر , ولدهشته وجد ما يشبه انخفاضا ارضيا بسيطا عند التعريشة , توجه إليه تفحصه بعناية وكانت المفاجأة .

كشف الانخفاض الأرضي الذي صنعته الأمطار جزء من درجة , درجة سلم , انحنى يتفحصه بعناية ويزيح الطين من حوله لتنكشف الأمور , ليست درجة سلم بل مربع خرساني طول أضلاعه مترا في كافة الاتجاهات وكأنه غطاء لمجارير قديمة , وجد في منتصفه حلقة حديدية , جذبها بشده , فتمنع الغطاء عليه فأخذ بأداة بناء صغيرة يحرر الطين من جوانب الغطاء , ثم حاول زحزحته وبدأ الغطاء في التحرك قليلا خطوة خطوة .

-ها نحن ذا

قالها خالد وهو ينظر باندهاش إلي ما انزاح الغطاء عنه , كانت فتحة متوسطة تؤدي إلي غرفة مدفونة وعلي حافة

الغرفة تم تثبيت سلم مجدول قوي من الحبال بوتدين من الحديد .

-إذا هذا ما تريدني أن أعرفه يا جدي

نظر للغرفة ثانية , ثم استدار موليا إياها ظهره وبدأ في النزول إليها مستخدما الحبال .

3

بعد قليل غادر خالد الغرفة المدفونة وأعاد كل شيء إلي موضعه وذهب وتحمم وغير ملابسه وحمد الله أن هيام أو مريم لم يحن موعد استيقاظهم بعد ثم توجه إلي مدرسته مستأنفا يومه العادي , محاولا نسيان ما شاهده وجعله يعرف مدى حرص فضلون على الحصول علي أرضه دون غيرها , خبيئته , خبيئة فضلون التي إن دلت .. دلت على أن ما يرتديه قناع ومتاجرة بالدين ليس إلا .

كان فقط يحاول استجماع أفكاره ليتخذ قراره المناسب في هذا الأمر .

4

لم تكد تمر أيام قليلة على هذه الواقعة حتى حان موعد عيد الصلح في سيوه الفترة من 14 إلي 16 أكتوبر, ولمن لا يعرف عيد الصلح هو عيد يجتمع فيه جميع سكان الواحة، أعلي جبل الدكرور، ويرددون وينشدون الابتهالات الدينية، ويتبادلون أطراف الحديث، بينما يجتمع الطهاة "الطباخين" لطهي اللحوم، التي شاركت بها كل البيوت السيوية لإعداد

وجبة غداء، عبارة عن أكله شعبية مصرية، خبز باللحم مع الأرز "فتة"، وبعد صلاة الظهر يجتمع الشباب من أهل سيوه، وتعد الوليمة الكبرى بصفوف طويلة من الأطباق، بشرط ألا يمد أحد من الحضور يده على الطعام قبل أن ينادي فيهم مناد يأذن لهم بتناوله بحيث يكون التناول جماعيا.

تستمر الاحتفالات بعيد الصلح وأحيانا يسمونه عيد الحصاد أو السياحة لمدة 3 أيام قمرية، وفي صباح اليوم الرابع، تخرج مسيرة كبيرة من أبناء سيوه يحملون الأعلام ويرددون الأدعية والمديح والابتهالات الروحانية، حيث تبدأ من جبل الدكرور، وتمر بالمزارع والشوارع، وصولا إلى ميدان سيدي "سليمان" بجوار المسجد الكبير، وسط مدينة سيوه، معلنين بذلك انتهاء الاحتفالات ليبدأ عاما جديدا بدون ضغينة أو كراهية، بل بالحب والاحترام والمصالحات في عيد "التصالح"

ويرجع تاريخ عيد الصلح إلي ما يقرب من مائة وستون عاماً، وتحديداً في عام 1285 هجرية، حيث كان هناك الصراع، بين سكان سيوه الغربيين والسكان الذين يسكنون جبل الدكرور الشرقيين، وأراد الشيخ محمد المدني، أن يزور مريديه وتلامذته من أهل الطريقة قادما إليهم من ليبيا، لأن أغلب أهل سيوه ينضمون تحت راية الطريقة المدنية الشاذلية، فأرادوا الواحة، أن يكرموا شيخهم ويظهروا له حسن الضيافة، فقرروا أن يحتفلوا بمناسبة قدوم شيخ الطريقة الشيخ محمد المدني، تحت جبل الدكرور نظراً لاتساع المكان ليشمل جميع أهل الواحة فكان الصلح بينهم.

لذا ولرغبة خالد ان يعيش أولاده هذه التجربة الفريدة أصر على حضور أحمد من الفيوم وبدأ في ذبح ذبيحة من الضأن للاشتراك بها في وليمة العيد لذا جلب له رداءا أبيض اللون له ولأحمد وبدأ الاحتفال بصعوده هو وأسرة عمه هلال ومسعود بالصعود إلي جبل الدكرور والجلوس في الاستراحات الطينية التي بنيت هناك , ولدهشته لم يعرف مريم زوجته حينما ارتدت الزي السيوي التقليدي هي وهيام وسعدى وبنات مسعود بدور ومسك , مسك التي زادها الزي جمالا فوق جمالها الأمر الذي لفت أنظار أحمد إليها وأخذ يختلس النظرات إليها رغما عنه بينما هي لاحظت هذا وابتسمت في خجل وهي تخشي ملاحظة شقيقها عابد .

بدا الجميع في أبهى ملابسهم بلباس العيد وهو الجلباب الأبيض، أما الشيوخ فكانوا يرتدون زى خاص ,فبالإضافة إلى الجلباب يرتدون عمامة حمراء.

استمر احتفال العيد بهذه الروعة حتى قدم فضلون برجاله معتليا حصانه الأسود ناظرا بازدراء إلي هذه الاحتفالية مما عده الشيخ هلال استفزازا فأصر على مواجهته

-الناس يلقون السلام إذا دخلوا على أحد يا ولد

-اسمي الشيخ فضلون يا شيخ هلال

فرد الشيخ هلال بسخرية

-الشيخ فضلون؟ ومن ولاك المشيخة يا شيخنا , رجالك هؤلاء ؟

رد فضلون بملامح وجه متجهمة

-أهل الحل والعقد من أهل السنة والجماعة يا شيخ هلال .

قال له مسعود ساخرا

-ونحن ؟ ألسنا من أهل الحل والعقد يا شيخنا ؟

-أنتم دعاة صوفية وتعتنقون مذاهب ما أنزل الله بها من سلطان , فسدت عقيدتكم , ما دمتم تصرون على ممارسة هذه العادات الصوفية التي بليت بمرور الوقت .

خالد : الاحتفال بعيد الصلح والمصالحة بين المتخاصمين وإقامة الشعائر والتواشيح الدينية وإطعام الطعام عادات صوفية ؟

نظر له فضلون بتحفز

-اصمت أنت يا هذا , ما أدراك بالدين حتى تتشدق به ؟

رد عليه الشيخ هلال بقوة

-بل ما علاقتك أنت به ؟ أنا وبكل ما درست في الأزهر الشريف وبما أعرفه من كتب وحفظي لكتاب الله أخشى أن أصف نفسي بأنني أحد علماء الدين , ما بالك أنت .

أجاب فضلون

-اسمع أيها الشيخ لا جدال في هذا , نحن هنا من نمتلك زمام القرار , كل من حولك تقريبا يعملون لدي ولن أسمح لهم في

الانخراط في تلك البدع الشركية , لا شأن لي بكم , أريد عمالي الذين تركوا المزارع واحتفلوا معكم .

ثم ينادي فضلون رجاله

-فليعلم القاصي والداني , أن من يستمر في حضور هذه البدعة سيخصم من راتبه الكثير

وارتفع صوت الهمهمة واللغط بين عمال فضلون معترضين حتى أن أحدهم وقف مواجها فضلون

-ولكنها عاداتنا وثلاثة أيام في العام لن يضروا المزارع في شيء , خاصة أنه تم سقي الزرع كله من قبل يا سيد فضلون , أم هل تريد أن تكدر صفونا فقط ؟

هنا قام أحد المجاورين لفضلون بلكز الرجل بعصاه فسقط أرضا أمام دهشة الحاضرين

-تحدث بأدب مع رب عملك يا رجل

ليندفع عابد وأحمد يجذبان الرجل في حين هب خالد إلي رجل فضلون فجذبه من فوق حصانه موقعا إياه وواضعا ساعده حول عنقه , مشتبكا معه .

ليرفع فضلون عصاه ضاربا خالد وتصرخ مريم والنساء ولكن مسعود تلقي الضربة بعصاه مسقطا عصا فضلون أرضا

فهب الشيخ هلال محدثا الجميع

-كفى , اوقفوا النزاع

فاجابه فضلون

-اجعل بن أخيك ينزع يده من حول عنق سعيد

رجلي أولا.

-دعه يا خالد , قلت لك دعه

يفلت خالد عنق سعيد ويدفعه إلي فضلون الذي يصرخ

-ستدفعون الثمن جميعا

هنا اتجه خالد إلي فضلون وجذبه من ياقة جلبابه إليه واقترب منه وهو يحدثه بصوت منخفض

-بل أنت ستدفع الثمن إن لم تغادر الآن , من خبيئتك يا فضلون .

ولدهشة الجميع ارتسمت معالم التوتر على وجه فضلون قبل أن ينظر إلي الجميع في توتر ثم يأمر رجاله بالرحيل .

-هيا يا رجال لنعد أدراجنا الآن , لنا عودة بلا ريب ..سأعود إليك يا خالد .

-وأنا في الانتظار , على الرحب والسعة

وينظر خالد إلي الجميع مشجعا إياهم علي استئناف الحفل .

-هيا يا رجال أكملوا العيد ولا تلقون بالا إليه .

اقترب منه مسعود ناظرا إليه بحيرة سائلا إياه

- تري ما الذي قلته له جعله يغادر المكان يا خالد ؟

-لا تفكر في الأمر كثيرا , هذا شأن بيني وبين فضلون فقط .

وانخرط الجميع في احتفالهم بينما على الجانب الآخر من الجلسة كان هناك رجلا يتابع ما حدث بشغف وترتسم على شفتيه ابتسامة.

الفصل الخامس موجة المد

1

ارتفعت سيرة خالد بعد مواجهة فضلون في الواحة والواحات المجاورة , وأصبح الناس يتداولون أحداث يوم العيد كقصص بطولات الأجداد الأوائل , أما فضلون كان قد شعر أن البساط يسحب من تحت أقدامه رويدا رويدا خاصة بعد ما عرف خالد سره الذي لم يتمكن من الحفاظ عليه , هذا السر الذي يساوي ببساطة حياة فضلون في حالة ظهوره إلي العلن خطأ فادح ولم يستطع فضلون علاجه بعد اعتقاله , لذا كان حريصا أشد الحرص على أن ينهي هذا الأمر إلي الأبد .

أما خالد لاحظ انه يتم استقباله استقبال الأبطال من زملائه في المدرسة بعدما حدث , الأمر الذي أثار تعجبه بشدة وشعر أن هناك تهويلا للأمر , إلي هذه الدرجة كان فضلون يثير رعب وقلق الناس ؟

جلس يفكر في الأمر أثناء جلوسه في فترة الراحة بين الحصص الدراسية وحينما لاحظه أحد زملائه مستغرقا في التفكير قام إليه ناشدا التحدث معه

-مستر مهدي الشمري معلم اللغة العربية في المدرسة .

صافحه خالد

-خالد عبد المنعم

- أعلم , أصبحت علامة من علامات سيوه يا مستر خالد.

-إلي هذه الدرجة ؟ ماذا دها الناس لكل هذا ؟

- تسير الأمور هنا في رتابة مملة , لذا ما حدث أمس في عيد الصلح أمرا هاما لم يحدث من قبل يا خالد .

-يشعرونني أن فضلون إله

-هم يرونه إله ما دام رب عملهم, أنا , أراه رأس مالي مستغل حقير يدعي التدين , ولكن ما دامت لم تتقاطع الطرق بيني وبينه فلا شأن لي به .

خالد: لما ؟

مهدي :هذه طريقتي في الحياة , وحتى كمعلم أعمل ما يوكل إلي دون تبرم أو ضيق , أقتصد في شئوني اليومية حتى يكفي المرتب أهل بيتي , لا ضير من إعطاء بعض الدروس لتحسين الأحوال المادية ولكن أنظر لها كوسيلة وليست غاية , لا أحب العداوات ولا التنافس على أمور دنيوية زائلة , لهذا كانت سيوه منفاي الاختياري .

يصمت قليلا ثم يستأنف

-قرأت لك بعد إصدارتك الأدبية , جميل ولكن الحياة ليست مثالية كما تظهرها في كتاباتك

يا عزيزي , رصد الواقع أشعر أنه أفضل كثيرا .

-أحاول أن أبث قيما وعادات للأجيال القادمة , أحاول أن أفهمهم أن لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوي ولا يوجد فرق بين أمازيج ومصريين , كلنا عرق واحد وأصل

واحد .

-جميل , ولكن متى ستظهر أثار هذه الطريقة.

-ربما مستقبلا يا مستر مهدي , بعد موتي , لم أعد قلقا إلي هذا الحد , انتهكني القلق كثيرا وأضر بسلامي الداخلي لذا حقا أرغب في هدنة طويلة مع نفسي أواسيها حتى لا تتمرد علي وتدمر نفسها وتدمرني .

-لهذا جئت إلي سيوه ؟

-ربما يا سيدي , سعدت بمقابلتك.

-وتشرفت بك يا زميل .

تصاعدت بضع طرقات على الباب ودخل صاحبها على الفور بعدها ناظرا لخالد

-خالد عبد المنعم فيما أعتقد

نظر إليه خالد محاولا تذكر هذا الوجه متسائلا

-أنت كنت أحد من حضروا معنا يوم عيد الصلح .

مد الرجل يده مصافحا خالد

-صحيح , هلا تحدثنا قليلا في الخارج.

2

رجع خالد إلي البيت بعد انتهاء اليوم الدراسي ليجد أحمد ومسك في الحديقة يتبادلان الحديث , وما إن رأته مسك حتى شعرت بالخجل وحيته وغادرت المكان مسرعة

بينما وقف أحمد ناظرا إلي الأرض منتظرا رد فعل أبيه .

-أين أمك ؟

-في الداخل يا أبي

-وهيام ؟

-مع بدور في الداخل أيضا

-اسمع يا أحمد لسنا هنا في مصر , هذه سيوه ويجب ان تراعي عاداتنا وتقاليدنا يا بني.

-أبي , كانت جلسة عادية ولا يشوبها شائبة , واعلم تمام العلم عادات القوم هنا يا والدي .

-هم قومك أيضا , لا تنسى هذا .

-حاضر يا أبي .

تركه خالد واتجه إلي مريم التي كانت منهمكة في المطبخ , نظر للطعام وشم الرائحة الشهية

-اممم , تطهين المبكبكة , حلت بركات سعدى في المنزل إذن .

-لم تكن سعدى , كانت مسك

-وتركتيها تجلس مع أحمد في الحديقة الأمامية .

-هم أمام نظري طوال الوقت , أعلم ما يدور بخلدك يا رجل , اطمئن .

-حسنا , غدا باكرا سأتوجه بالسيارة إلي القاهرة , أطمئن على بيت السيدة زينب وأقابل الناشر لأعطيه مخطوطة الرواية الجديدة وأرجع في اليوم الثالث إن شاء الله .

شعرت مريم بقلق لا تدري مصدره قبل ان تجاوبه

-حسنا كما تشاء ولكن احذر خطر الطريق , أنت لم تمارس القيادة عليه من قبل .

-وها قد جاء الوقت يا مريم لا تقلقي , إن هي إلا أيام وأرجع إلي المنزل .

وغادر المكان إلي غرفة نومه أما مريم كانت محقة , كان خالد إضافة إلي هذه الأمور ينوي الإبلاغ عن خبيئة فضلون .

3

في اليوم الثاني غادر خالد مبكرا بالسيارة من أمام البيت , ومن بعيد كانت هناك سيارة أخري دفع رباعي تتبعه من بعيد , لو اقتربنا من وجه سائقها لعرفناه جيدا , كان وجه سعيد رجل فضلون وساعده الأيمن .

بعدها بساعات قليلة عم الخبر سيوه , عثر البدو في رحيلهم على سيارة مقلوبة ومحترقة واحترق قائدها معها , وإلي جوار السيارة وجدت أثار فوارغ إطلاق نار وأثار عجلات سيارة دفع رباعي .

كانت سيارة خالد وجثته

مات خالد عبد المنعم الحالم الأخير.

.....

4

وداع أخر الحالمين

كانت جنازة حاشدة في مقابر باب الوزير , أصر أحمد على نقل جثمان أبيه من سيوه إلي مقابر باب الوزير ليدفن بجوار أباه تنفيذا لرغبته ووصيته , التي أوصى بها من قبل .

ورغم طول الرحلة والمشقة في الذهاب من سيوه إلي القاهرة , أصر الشيخ هلال على توديع بن أخيه بنفسه فجاء بأسرة مسعود ولده كاملة مرافقة للجنازة .

انتهت المراسم وعملية الدفن وسط بكاء ودموع مريم وهيام ومحاولة احمد التماسك

أما مسعود وعابد فقد قاما بكل ما يلزم من أجل أن يذهب خالد إلي مأواه الأخير بكل سلاسة .

أما الأروع كان مرور الجنازة من ممر شرفي من طلاب خالد في القاهرة , اعترافا بفضله وجميله في تعليمهم , كانت لمسة تليق بمربى فاضل فنى عمره في تحقيق أهدافه .

وعلى مقربة من مراسم الدفن وقف نفس الرجل الغريب يوم عيد الصلح يتابع الأحداث في صمت , وعند مغادرة الجميع وقف بمفرده أمام القبر ناظرا له , ثم أخرج جواله وقام

بالتحدث إلي شخص ما .

-تمت مراسم الدفن بسلام

واستدار مغادرا المكان .

.....

5

قيد الحادث ضد مجهول وانتهت التحقيقات على ذلك أما مريم بعد ثلاثة أيام غادرت القاهرة مع بقية الأسرة في رحلة العودة لسيوه

التي اختاروا البقاء بها لارتباطهم بعائلة خالد هناك فهي كل ما تبقى من ذكراه , وتكفل مسعود بإنهاء إجراءات المعاش ومحاولة الاهتمام بهم حتى لا يشعرون أنهم غرباء وسط هذا المجتمع الجديد عليهم .

وبعد مرور عدة أيام مر الشيخ هلال على مريم

ليتابع رعايتهم , فوجدها تحتضن صورة خالد وكتبه تتشممها وتبكي بحرقة فجلس بجانبها يواسيها

-على خالد تبكي البواكي يا أم أحمد

-لست قادرة على تخيل ما جري , من هذا الذي تجرأ علي إيذاء خالد ؟لم يكن يكن عداوة لأحد ولم أره يوما ما يفكر في إيذاء أحد , كان خلقا يمشي على الأرض, يا لوعة قلبي يا خالد.

تصمت قليلا ثم تكمل

- قل لي يا عماه , لماذا لم يتم عقد مراسم عزاء خالد هنا في سيوه ؟

-لإذننا لم نثأر لخالد بعد يا بنيتي

تنظر له باهتمام

-هل عرفتم القاتل ؟

-لا , لم نعرفه بعد , وحتما حينما نعرفه سيلقى حتفه .

-وفضلون ؟

-لا دليل عليه ولم يثبت تورطه في الجريمة حتى الآن على الأقل , وإن كان هو فإن بطن الأرض خيرا له من ظهرها مما سيلاقيه منا .

-الله وحده قادر على إظهار الحق يا عماه , فليرعانا الله بعنايته ورحمته .

-خيرا إن شاء الله , أين أحمد ؟

-في الداخل مع عابد , أصبح لا يجد سلوانه إلا معه .

-بارك الله فيهم , هم من سيجدد نسل هذه العائلة .

ويغادر المكان مستندا إلي عصاه الغليظة .

6

بعد عدة أيام غادر أحمد المكان عائدا إلي جامعته في الفيوم , في استراحة انتظار الباصات وجدها تنتظره برداء نساء سيوه والبرقع على وجهها , نظرة واحدة فقط لعينيها أدرك أنها مسك, جلس على دكه الاستراحة وجلست هي على مقربة منه تتحدث إليه في حذر

--هكذا ؟ تغادر دون حتى توديعي ؟

-يعلم الله يا مسك أنني لم أعد أعرف ما الذي دهاني , كانت وفاة أبي صدمة ما بعدها صدمة , لا نعرف متى سنتمالك أنفسنا ؟

-الصدمة كانت لنا جميعا , أبي أصبح منعزلا في الآونة الأخيرة , أراه أحيانا يبكي في صمت , جدي بدوره لم يعد يفارق الخلوة كثيرا , فراق عمي خالد ترك جرحا لن يندمل .

-أعلم هذا وأدعو الله أن نتجاوز جميعا هذه المرحلة .

-متى سترجع ؟

-بعد أسبوعين من الآن إن شاء الله

-سأنتظر مكالمتك , لا تنسى

تدمع عيناه في حزن

-مسك إنني لا أرغب في أن تقعين في أي مكروه قد أتسبب فيه لك

-تحبني ؟

-أنا .....

يصمت ولا يستطيع إكمال عبارته

-قلها يا أحمد , تريد مسك؟

-نعم والله أريد مسك, نفسا أتنفسه , سندا يدعمني , دربا أسير فيه بأمان لا أخشى فيه شيء , نورا يهديني في عتمة الظلمات , زوجة أق بها نفسي شر الفتن , هل يكفيك هذا يا مسك ؟

-بشكل مؤقت نعم , ولكن نحن النساء لا يكفينا بحورا من كلمات العشق لو كانت كلمات العشق بحورا , نطمح دوما

للمزيد , سأنتظر يا أحمد , ولكن عدني أن تكون رجلي أنا فقط فانا وإن كنت بدوية , لا أقبل شريكا لي في قلب أعشقه.

يمد يده تعانق أصابعه أصابع يدها المرتجفة ثم تسحب يدها وتغادر المكان قائلة .

-في أمان الله ورعايته يا شقيق الروح .

7

مرت عدة أشهر على هذا اللقاء الحار , كان احمد خلالها لا يحاول التغيب كثيرا عن البيت في سيوه خوفا على قلق والدته مريم , أما مريم كانت تحاول التعايش على ما تبقى من ذكرياتها مع خالد وإن كانت تدرك تمام الإدراك أن هناك جزءا مات بداخلها تم دفنه مع خالد حينما مات .

لم يكن يؤرق بالها غير محاولات فضلون مقابلتها لاستئجار الأرض أو حتى شراء المزرعة بأكملها وهو ما رفضته تماما بمساعدة مسعود الذي تصدى له خاصة بعد ما شعرت أنها حوصرت من قبل فضلون بشرائه المزرعة الملاصقة لها , مما زاد الأمر ريبة وشك بداخلها وتذكرت حديث خالد السابق الذي عبر فيه عن قلقه من هذا الأمر .

والحقيقة أنها كانت تريد إيجار المزرعة لكي يساعدها في تكلفة المعيشة التي تتزايد يوما بعد أخر ولكن ليس لفضلون .

لذا وبعد مرور عام كامل قررت أن تستدعي مسعود وتحدثه عن أمر المزرعة ورغبتها في وضع حل نهائي لها إما بالإيجار أو البيع .

-خيرا يا أم احمد

-خيرا أن شاء الله, كنت أريد أن أتحدث معك قليلا فيما يخص المزرعة .

-هل هناك أمر ما طرأ بشأنها ؟ نحن على مقربة من موعد استلام الدفعة الأخيرة من ثمن محصول التمر و .....

تقاطعه

-لا أقصد الثمن , أعرف تماما انك لا تدخر وسعا في العمل لصالح الأسرة , ولكن نحن لا دخل لنا بالزراعة , لذا كنا نفكر في تأجير المزرعة أو حتى بيعها ووضع ثمنها وديعة بنكية .

مسعود بدهشة

-بيعها ؟ , مع احترامي لقرارك الشخصي ولكن نحن لا نبيع أملاكنا في إرث عائلي , منزلكم هو منزل الأسرة الأكبر وتراث العائلة , قد تبدو كل هذه الأمور الروحية بلا قيمة نظرا لنشاتك القاهرية يا مريم , ولكن بالنسبة إلينا هنا في سيوه هو كل شيء .

-ما الحل إذن أنت تعلم صعوبة الوضع المادي وتعلم أيضا انه لا حل لدي إلا هذا .

- وهل كللنا أو مللنا منكم , نحن لم نقصر .

اجابت مريم

-معاذ الله أن نظن بكم هذا ولكن نحن نرغب في الاعتماد على مواردنا هكذا علمنا خالد رحمه الله ولا نحب أن نثقل عليكم

-كيف تثقلون علينا ونحن أصل واحد يا أم أحمد , هذا واجبنا

-تعلم يا أبا عابد أنه لولا أسرتكم الكريمة وعمي الشيخ هلال ما مرت أسرتي بهذه المحنة , لا أنكر دوركم الهام ولكن أحتاج حلا حقيقيا , لذا ساعدوني في اتخاذ قراري .

استغرق مسعود في التفكير قليلا ثم نظر لها قائلا

-المنزل بالمزرعة بالاستراحة الخاصة بالعمال تبلغ مساحتهم أكثر من خمسة عشرة فدان , لذا يجب التروي قبل اتخاذ أي قرار في شأنهم ,لذا من الممكن طرح استغلالهم وتأجيرهم في مزاد علني يتم دعوة الجميع إليه في الواحة وصاحب أعلى سعر يستأجر المزرعة , لا أجد حلا إلا هذا .

صمتت مريم قليلا ثم لم تجد حلا مناسبا إلا هذا الحل لذا أبدت موافقتها على هذا المقترح

-كما ترى يا أبا عابد , بالنيابة عني وعن أولاد أخيك اتخذ اللازم ناحية هذا الأمر .

-الله المستعان .

الفصل السادس: عمر صفي الدين

1

بعد اتخاذ الإجراءات الرسمية حان موعد المزاد العلني على مزرعة خالد , وجاء أحد القائمين من وزارة الزراعة لتنظيم المزاد , اصطفت الأسرة بداية من الشيخ هلال ومسعود إلي جانب فتيان الأسرة عابد وأحمد خالد وكانت مريم والفتيات يتابعن الموقف من بعيد , عدا بدور التي انهمكت في تقديم واجب الضيافة للجميع .

وكان بعض الحضور من أهل الواحة يتابعون الأحداث أيضا في صمت فليس لهم لا ناقة ولا جملا في هذا الأمر.

الأغرب هو عدم حضور مزايدين , فقط مزايد واحد هو الذي حضر وأخذ ينظر في وجوه الجميع في تحد ووقاحة , كان فضلون , واسترعى الأمر انتباه مسئول المزايدة فتوجه ناحية مسعود سائلا

-ماذا جري يا سيد مسعود , أين بقية الحاضرين , لا يوجد إلا السيد فضلون ؟

مسعود بتوتر

-حقا لا أعرف ما الذي جري , كل من اتفق معي , لم يحضر من الأساس , ولكن الأمر مفهوم ما دام هذا الوغد قد حضر , تنازلوا له عن المزاد كما يبدو.

-هل نلغي المزاد أم ماذا ؟

هنا تدخلت مريم بضيق

-لم يعد الأمر يصنع فارقا معنا , هو أو غيره , لا خيار لدي

مسعود بغضب

- هذا لا يليق يا مريم

أجابته مريم

-ومن أدرانا أنه لن يأتي بشخص أخر يدخل المزاد بدلا منه , انتهى الأمر .

تنظر إلى المسئول

-تابع الإجراءات إن تكرمت يا سيدي .

-حسنا كما تريدون

نظر لها مسعود في ضيق ثم تركها وجلس في مكانه مشيحا بوجهه فيما بدأ المزاد على المزرعة .

-مزاد اليوم على إيجار سنوي لمزرعة المرحوم خالد عبد المنعم , هذا وتم تحديد مبلغ لبدء المزايدة تم تقديره ثلاثون ألف جنيه سنويا , والآن نفتح المزايدة , من يستطيع المزايدة من الحاضرين؟

أجابه فضلون

- خمسة وثلاثون ألفا يا سيدي , لا يوجد غيري ,وها هم .

يقدم حقيبة صغيرة بالمبلغ أمام المسئول ويكمل

-أعد أوراقك على الإمضاء

ثم يستدير إلى الشيخ هلال والجميع متحديا

-حسنا لا أري أي اعتراض الآن ,ولا مستقبلا , قضي الأمر , ألا تبارك لي يا شيخ هلال؟

أشاح هلال بيده

-لله الأمر من قبل ومن بعد فليقض الله أمرا كان مفعولا .

هنا وعلى حين غرة ارتفع صوت رجولي غريب به حشرجة عجيبة متحدثا في أدب

-عفوا , هل هذا مكان المزايدة المعلن عنه ؟

نظر الجميع في اتجاه الصوت ليجدوا رجلا متوسط الطول يرتدي منظرا ممتلئ قليلا ومن خلفه ثلة من عشرة رجال يتحدث

-أكرر سؤالي , هل هذا مكان المزايدة ؟

نظر له مسعود في أمل

-نعم هو تفضل يا سيدي

تقدم فضلون من الرجل في غضب

-تمت المزايدة وانتهى الأمر يا رجل غادر المكان .

خلع الرجل منظاره الشمسي في بساطة واقترب من فضلون سائلا

-هل أنت القائم على المزايدة ؟

أجابه فضلون

-لا , بل الرابح بالمزايدة

تجاهله الرجل وتقدم ناحية مسئول المزايدة

-فيما يبدو أنه لم يحدث شيء إلي الآن , ما رأيك يا سيدي هل لي حق دخول المزايدة؟

أجابه المسئول

-نعم يا سيدي , تفضل بالجلوس

تحدث فضلون إليه بغضب

-ماذا دهاك يا رجل , انتهى الأمر .

أجابه فضلون

-لا لم ينتهي الأمر بعد يا سيد فضلون لك حق دخول المزايدة أمام ..معذرة ما أسم السيد

التفت الرجل إلي جميع الحاضرين وقدم نفسه

-عمر , عمر صفي الدين , رجل أعمال وصاحب شركة جسور الزراعية.

تقدم منه مسعود مصافحا بسعادة لا يعرف سببها ربما لأنه أخيرا ظهر منافسا لفضلون, أما مريم ظلت تنظر لعمر هذا في اهتمام غريب وصمت أغرب وروادها شعورا غريبا لا تعرف تفسيره بالارتياح , ربما لأنها تخلصت من تأنيب الضمير الذي انتابها بسبب فكرة تأجير فضلون المزرعة .

التفت عمر إلي الشيخ هلال مصافحا

-الشيخ هلال كبير عائلة العبادي

وانحنى في احترام مقبلا يد هلال فسحبها الأخير بسرعة

-حاشا لله يا بني , تشرفنا بك .

ثم نظر عمر إلي فضلون

-والآن أين وصلنا ؟ خمسة وثلاثون ألفا؟ , حسنا لنجعلها سبعون ألفا في العام .

وانتهى المزاد لصالح عمر صفي الدين.

2

- ورغم عرض فضلون ثمنا اكبر لإيجار المزرعة إلا أن خالتي مريم فضلت عرض عمر هذا ,ثم التفت إلي الجميع وقال أنه يحتاج عمالا في المزرعة بضعف أجر من يعمل عند فضلون, فهلل الناس واستطاع ضم ٢٥ عاملا من عمال فضلون إليه .

قالتها بدور ابنة مسعود وهي تحكي لأمها سعدى بفرح ما حدث في المزاد .

فقالت سعدى

- لا ريب أن فضلون سيموت كمدا وحزنا على هذا الأمر , لطالما كان هدفه المزرعة دون سواها , يا له من أمر غريب .

أجابها مسعود الذي كان مستلقيا على أريكة جانبية

- إن أمر فضلون يدعو للدهشة والقلق , لم يعرف سر فضلون إلا خالد رحمه الله , شاهدتم جميعا يوم الصلح كيف انفرد بفضلون وأسر له بكلمات جعلته يغادر المكان , يومها سألته عما قال له جعله يغادر , أجابني أنه أمر يخصه هو وفضلون وذات يوم سيقصه على مسامعي , ثم مات رحمه الله.

سعدى : وهل عمر صفي الدين هذا أهلا للثقة ؟

أجابها مسعود

-لست أعرف ؟ ولكن يقيني ويقين أبي أنه شخص طيب المعشر , حينما يثني أبي خيرا على أحد فهو خير إن شاء الله

قالت بدور

-هل رأيت يا أبي حراسته الشخصية , يبدو أنه ذو مكانة كبيرة .

-لا أعلم عنه شيئا تقريبا سوى أنه مجرد رجل أعمال من الذين يستثمرون في المجال الزراعي ومعه مجموعة من المساعدين له .

- وأين سيقيم يا أبي ؟

أجابها مسعود

- في الاستراحة الملحقة بالمزرعة هي مبنى قائم بذاته من دور واحد متعدد الغرف .

تنهدت سعدى قائلة

-اللهم اجعل مقدمه خيرا وبركة .

ثم تلتفت حولها متسألة

- أين عابد؟

بدور : يعد هو وأحمد مائدة غداء لعمي عمر هذا ومن معه وتساعداهما مسك وهيام .

نظر مسعود إلي سعدى نظرة ذات معنى ثم أنهت سعدى الحوار

-حسنا , لنا وقفة في هذه المسألة بعد هذا .

3

في المزرعة وقف عمر ينظر إلي الأرض بارتياح غامر , ثم أدار وجهه إلي أحد رجاله سائلا إياه

-ما رأيك يا سليم ؟

رد عليه سليم بأدب

-أراها رائعة يا سيدي , وأتوسم منها الخير الكثير إن شاء الله

-أتمنى من الله أن تحل علينا بركته وينجح هذا الأمر , هل تناول بقية الرجال والعمال طعامهم؟

- نعم يا سيدي , وبعد أذان العصر سيبدأ الجميع في العمل علي الفور بتجهيز الأرض لزراعة شتلات الزيتون , وتسميد النخل .

-امم , هذا جيد , وأماكن النوم في الاستراحة ؟

- ستكون جاهزة بعد صلاة العشاء , إن السيد عابد والسيد أحمد يبذلون قصارى جهدهم لتهيئة المكان .

-بوركت يا سليم , أنت شاب مبهر لا تفوتك فائتة .

ارتفع صوت أحمد بأدب

-عفوا يا سيد عمر , تدعوك أمي لتناول الغذاء و القهوة في منزلنا .

التفت إليه عمر في بساطة ناظرا له بابتسامة واسعة مربتا على كتفه

-لا نريد ان نتسبب في إزعاج الوالدة يا بني

-كيف هذا ؟ نحن ننتظرك يا عماه

نظر إليه عمر مليا ثم تأبط ساعده إذا هيا بنا يا بني , ألم تشعر بالجوع يا سليم؟

-جدا إن جاز لي القول يا سيد عمر.

ضحك أحمد ثم قال

-هلم بنا يا رجل قبل ان يبرد الطعام .

4

دخل عمر لأول مرة إلي منزل خالد مع سليم وأحمد وكان في استقبالهم عابد ومسك وهيام .

أخذ عمر يتصفح بهو المنزل وينظر إليه كثيرا ويتحسس الأثاث بطريقة غريبة ثم جلس على المائدة محرجا بعد أن لاحظ نظرات الجميع إليه .

-جميل , كل شيء هنا يوحي بالأصالة هنا وكأن المنزل في حقبة زمنية مختلفة , مع ذلك يسعدني مقابلتكم , والتفت إلي سليم

-اجلس يا سليم رائحة الطعام جعلتني أتذكر أن لي معدة تجوع أحيانا .

جلس الجميع إلي الطعام بينما نظر عمر صفي الدين فجأة إلي صورة كبيرة لخالد معلقة على الحائط , أطال النظر إليها وشعر شعورا غريبا بالحيرة وهو ينظر إلي وجه خالد في الصورة ولم يلبث أن هز رأسه طاردا أفكارا غريبة من رأسه .

بعد قليل جاءت مريم وألقت السلام على الجميع وجلست على رأس المائدة في مواجهة عمر , رد تحيتها مثنيا على حسن الضيافة قائلا

-تعجز عبارات الشكر عن الثناء عليكم يا سيدتي .

-العفو يا سيد عمر , هذا منزلك , على الرحب والسعة في أي وقت , لقد انتهى العمال من تجهيز الاستراحة .

-حمد لله , بعد هذا الطعام الشهي سنذهب للاستراحة نتفقدها , ونحن دوما رهن خدمتكم .

رد عابد بحبور

-العفو يا سيد عمر , نحن هنا جميعنا إخوة لك.

-شكرا لذوقك يا عابد .

وانهمك الجميع في تناول الطعام عدا مريم التي لا تعرف تحديدا ما الغريب في أمر عمر هذا الذي جعلها تشعر أنها تعرفه منذ زمن بعيد ,وعبثا حاولت عصر ذهنها لمحاولة تذكر أي ذكري قديمة مع هذا الوجه فلم تستطيع , لذا استسلمت وتركت الأمر للأيام علها تتذكره.

5

مرت الأيام بعد ذلك بأحداثها اليومية المعتادة, في غضون عام كان عمر صفي الدين هذا قد أثبت أنه عقلية تجارية خطيرة فيما يبدو , في الأسبوع الأول من العام كانت شتلات الزيتون قد تم زراعتها وترك ما يقارب اثنين فدان ونصف

لزراعة كافة أنواع الخضروات التي يحتاجها عمال المزرعة في الطعام اليومي , بعدها تحدث مع مريم في بناء جزء من الأرض كمزرعة دواجن صغيرة قائمة على البطاريات من ثلاثة أدوار , فوافقت على الفور , وبعد بنائها قسم كل دور حسب الحاجة إليه

من لحوم وبيض , ثم استطاع زراعة خمس فدادين من الأرز وفي أسفل المحصول كان يمرح السمك الذريعة , إلي جانب مصنع صغير لتجفيف التمور وأخر لاستخراج زيت الزيتون .

وهكذا كانت مزرعة خالد عبد المنعم بفدادينها الخمسة عشر قد أصبحت أنشط مزارع سيوه وأكثرها إنتاجا وارتفع عدد العمال إلي خمسين عامل في كافة الأقسام .

على الجانب الآخر كان فضلون قد أيقن أنه أمام خصم شرس لا يأبه لسلطته ولا هيبته وسط الأهالي التي تتضاءل مكانة فضلون عندهم وترتفع مكانة عمر صفي الدين تدريجيا .

لذا كان فضلون قد أيقن تماما أن اللجوء إلي القوة لاسترداد خبيئته وعدم كشف سره أصبح هو خياره الوحيد , فقط كان يحتاج إلي الوقت ,وللأسف حتى الوقت لم يعد متوافرا لديه , فضلون ما هو إلا مجرد فرد في منظومة , مجرد واجهة لنشاط خفي ملعون لا يعرفه أحد

فضلون هو بداية الخيط أما نهايته لا أحد يعرف أين .

يدرك فضلون تماما أن موعد مواجهة عمر صفي الدين ستأتي عما قريب, كل يوم يمضي يكتسب فيه عمر صفي

الدين أراض جديدة ومزارع لم يكن أحد يعيرها اهتماما , فقط حينما يضع عمر قدمه فيها تتحول إلي جنة خضراء .

حفل زفاف لابن أحد المشايخ تدخل سيارة محملة بعجل ضخم هدية من عمر صفي الدين , زواج يتامى , مساعدات أرامل ومحتاجين , دفع مصاريف دراسة , بكل هذه الأشياء مجتمعة أصبح عمر يمشي محاطا بثلة من الناس يعرضون مشاكلهم وحاجاتهم عليه وهو يسارع بتلبيتها بسرور .

وبين الآونة والأخرى يذهب إلي مريم باستحياء يسألها عن حاجة لها يقضيها ان وجدت , فكانت تتعامل معه بأدب وتحفظ ويغادر المكان بهدوء .

أمام أنظار مريم التي تتابعه بنظرها وهو ينصرف وتزداد حيرتها بشأنه يوما بعد يوم , غير أنها لا تعرف لهذا تفسيرا أيضا , كل ما تعرفه أن هذا الرجل صنع فارقا في حالتهم المادية حيث أنه لم يكتف فقط بإيجار المزرعة ولكن جعل لهم حصة شراكة بالأرض في مزرعة الدواجن والمصنعين الصغيرين للتمور والزيوت فوجدت نفسها بعد مرور العام الأول تمتلك ثروة صغيرة من إيرادات المصنعين كافية بجعلها لا تقلق تقريبا من حيث الشأن المالي .

الفصل السابع: من أنت حقا يا رجل ؟

1

استمرت الأمور على هذا المنوال حتى حل فصل الشتاء القارس في سيوه وانخفضت درجات الحرارة بشكل كبير , وفي ليلة باردة فوجئت مريم بصوت سليم مساعد عمر يحدث هيام بالأسفل طالبا رؤيتها فنزلت إليه لتجد وجهه متوترا قلقا فأيقنت أن هناك أمر ما حاق بعمر وما إن شاهدها حتى قال لها

- سيدي عمر مريضا بشدة يا أم أحمد ولا أعرف ماذا دهاه ؟ حرارته مرتفعة ويرتجف جسده ولا يستجيب إلي ندائي عليه .

قالت مريم بتوتر

-منذ متى ؟

-من صبيحة اليوم وطلبت منه أن أستدعي طبيبا فرفض وبعدها تطورت الحالة إلي هذا الوضع .

نظرت مريم إلي هيام أمرة

-علبة الإسعافات الأولية يا هيام وستجدين بعض الأمبولات العلاجية وسرنجات طبية في الثلاجة اجلبيها أيضا , وهلموا معي .

2

منذ زمن لم تدخل مريم إلي الاستراحة , منذ موت خالد تقريبا , لذا شعرت بغصة في قلبها حينما دخلت ووجدته ملقى في سريره على هذا النحو ..لا تدري لماذا ذكرها مظهره وقتها بخالد , انحنت لقياس الحرارة بالترمومتر لتجدها قد تعدت التسعة وثلاثون درجة ونصف , حمى , هذا ما يبدو الأمر عليه , بدأت في اتخاذ الإجراءات المتبعة معه في مثل هذه الحالات , اتبعت أسلوب الكمادات الباردة المشبعة ببعض الخل لتخفيض الحرارة , ثم كسرت امبولين من المضاد الحيوي ومخفض حرارة وضعتهما في السرنجة وانحنت لتكشف زراعه لإعطائه حقنة وريدية فتراجعت قليلا إلي الوراء متفاجئة مما رأته , كان زراع عمر مشوه نوعا ما بآثار حروق جلدية قديمة نوعا ما , لهذا فهمت الآن لماذا كان يفضل أن يرتدي قمصانا صيفا وشتاءا , حسمت أمرها وتحسست الوريد ثم حقنته بالمادة , ونظرت لسليم قائلة

-سيد سليم , قم بتوصيل هيام إلي المنزل إن كنت لا أثقل عليك واتجه إلي أقرب طبيب في الواحة واجلبه إلي هنا , وأنا سأظل هنا أرافقه.

قالت هيام

-دعيني يا أمي ربما تحتاجين مساعده

-ستذهبين لجلب بعض الأشياء الضرورية من المنزل وتعودين إلي هنا مع عودة سليم بالطبيب .

هيام :حسنا كما تريدين

ثم غادرت المكان هي وسليم بينما ظلت مريم تتابع عمر الذي ينتفض جسده من الحرارة وبين الحين والآخر يهمهم بكلمات وعبارات غير مفهومة , دقائق قليلة وبدأت درجة الحرارة تهبط ثم بدأ صوته ينخفض وتنتظم أنفاسه ويهمهم بكلمة أخيرة قبل أن يغرق في النوم , مريم , نطق باسمها مرتين قبل أن يستجيب للعلاج مرغما ويخلد للنوم .

أخذت مريم الدهشة الشديدة , انه ينطق باسمها , ماذا دهاه هذا الرجل ؟من مريم هذه؟تري أتكون هي ؟ثم تحركت يده وقبضت على أصابعها بضعف , نظرت إليه بإحراج , دمعت عيناها , إنها هي , هي من يناديها في نومه , سحبت يدها برفق , ودون إرادة منها وجدت نفسها تغني , نعم تغني , كما كانت تغني لخالد بصوتها الجميل وهو مريض , كان يقول لها إن صوتك الحسن يا مريم لهو مكمل طبيعي للعلاج .

-قبلك كان قلبي عادي عايش حياته عادي لما لاقيتك قصادي حبيت معني الحياة .

ثم لم تلبث أن أفاقت علي صوت قدوم الطبيب مع سليم فتمالكت نفسها وأفسحت الطريق له ليباشر عمله .

3

طوال فترة مرض عمر كان يتلقى زيارات من الشيخ هلال ومسعود والعديد من رجال الواحة ورموزها.

وبعد عدة أيام تماثل للشفاء من نوبة البرد الشديدة هذه وبدأ في الخروج من الاستراحة ومباشرة عمله , ومع حلول يوم

الجمعة خرج للصلاة في مسجد سيوه الكبير واستقبله الجميع بحفاوة بالغة , بعدها اتجه إلي بيت خالد وطلب مقابلة مريم .

ترددت مريم في المقابلة غير أنها استجمعت نفسها ونزلت البهو إليه .

كان واقفا يطالع ويتصفح مكتبة خالد الضخمة وينظر بإعجاب لمقتنياتها الرائعة , شعر بوجودها بعد أن تنحنحت فالتفت إليها قائلا

-مكتبة ثرية تليق بمعلم جليل , لا ريب أنه قضي عمره كله في جمع هذه الكنوز , موسوعة الحضارة , وصف مصر , الكامل في التاريخ , يا لها من ثروة هائلة !

-كان محبا للتاريخ عاشقا له , هل تقرأ يا سيد عمر؟

-أحب القراءة ولكن أعمالي تشغلني عنها في الفترة الأخيرة .

ثم اقترب منها ناظرا إليها قائلا

-عاجز عن الشكر والامتنان لموقفك النبيل تجاهي .

-على الرحب والسعة يا سيد عمر , هذا واجبي .

أدخل يده في جيبه مخرجا علبة مجوهرات صغيرة وقدمها إليها

-اسمحي لي

-ما هذا ؟

-هدية

-لما؟

-تعبير عن شكري لموقفك النبيل

صكت وجهها غضبا وقالت

-ما أغرب أن يكون رد الجميل وقاحة

تراجع مندهشا وقال

-وقاحة؟ لست أقصد تماما ما وصل إليك , فقط أردت التعبير عما ....

يصمت قليلا ثم يكمل

-عما يجيش بمكنون صدري نحوك .

ثم استدار مغادرا المكان تاركا إياها دامعة العينين .

4

في الليل جلس عمر كعادته أمام نار أوقدها أمام الاستراحة تقيه من البرد , يعبث بفرع شجر قديم في النار ويستمع إلي لحن ما في راديو صغير بجواره , ولم يفق إلا على صوت مريم يأتي من خلفه

-ماذا تريد مني يا عمر؟

التفت إليها باسما

-مريم , ما الذي أخرجك في هذا الجو القارص؟

-قلت لك ماذا تريد حقا ؟

-لا أعرف ..حقا لا أعرف ما الذي ينتابني تجاهك, لا اعرف تفسيرا له سوى أني , أشعر بالاحتياج إليك يا مريم , ربما كطفل إلي أمه , كنفس تائهة إلي مستودع تسكن إليه , حقا لا أعرف .

قالت باكية

-وإنا لا أصلح لكل هذا , حقا لا أصلح , أنا أم , أريد أن أكمل واجبي نحو أولادي , أعيش على ذكري رجل لم يقصر ناحيتي يوما ما , وهو في قبره الآن أعتبر وقوفي معك خيانة له , لا أعرف كيف سأكفر عنها.

تمسح دموعها وتكمل مختنقة

-وفي نفس الوقت أعجز تماما عن معرفة سبب انجذابي نحوك , هناك أمر ما خطاء يحدث , أمر لا أريد الانجراف إليه .

-لماذا يا مريم ؟ لماذا ؟ هذه أنانية منك لا أجد لها تفسير , لقد استوليت على قلبي وروحي وعقلي وأتمنى أن أجد لي ولو مكانا صغيرا في قلبك يا مريم .

قالت

-لا أستطيع يا عمر , حقا لا أستطيع , هل لي أن أسأل من أنت ؟من أين أتيت ؟ما الذي دفعك للقدوم إلي هذا المكان واستثمار أموالك فيه؟ من هم هؤلاء الرجال من حولك ؟مساعدينك أم حراسك ؟ أنت غامض يا عمر بل أنت

الغموض نفسه , هناك شيء ما يجعلني أتعاطف معك لا أدرك ما هو , لكني لن أنساق وراء غموض .

تستدير لتنصرف ,يجذبها من يدها فتحاول جذبها إلا أنه يتشبث بها أكثر , وينظر في عينيها قائلا

-لم أكن في كامل وعي حقا لكني ما زلت أتذكر أنني سمعتك تغني هذه الأغنية , قبلك كان قلبي فاضي عايش حياته عادي , كنت تغنين لي يا مريم أليس كذلك ؟قوليها يا مريم ولا تبالي لأحد.

مريم باكية

-اتركني , اتركني يا خالد

سمع اسم خالد فترك يدها في حزن , ارتبكت بكت أكثر ثم اندفعت مغادرة المكان , أخذ ينظر إليها قبل أن يشعر فجأة بصداع غريب وألم برأسه أغمض عينيه وأخذ يمسك رأسه ويكتم صراخه ووسط هذا تندفع إلي رأسه لقطات غريبة لشجار يري نفسه يتشاجر فيه ويتضارب مع شخص ما , ولكن العجيب أنه كان في جسد شخص أخر بدا مألوفا له لكنه لا يتذكره , ازدادت الألأم فسقط أرضا وأسند رأسه وغرق في نوم عميق .

5

كانت نوبات هذا الصداع الغريب والرؤى لا تكاد تفارق عمر وكل نوبة برؤية مختلفة لحدث غريب يشعر أنه مر به من قبل ولكن الوجوه لا يتذكرها , ومع هذا تماسك ليستأنف

حياته العادية ومحاولة تحقيق النجاح في المزرعة وتوفير سبل العمل قدر الإمكان للمزيد من العمال ,

مع نهاية العام كان أحمد قد اجتاز العام الثاني في الكلية بنجاح وشعرت مريم أن رحلتها في الكفاح تؤتي أكلها وهيام أصبحت على بعد خطوة من الصف الثالث الثانوي لذا قررت إقامة مأدبة غداء للفقراء بالمنطقة حضرها العديد من الفقراء والمساكين ورواد الصوفية من محبي خالد رحمه الله وحضرها الشيخ هلال ومسعود وأسرته وفي نهاية اليوم حضر عمر صفي الدين مع سليم وما إن رآه أحمد حتى ذهب معانقا إياه مرحبا به

-عمي عمر , مرحبا بك في بيتك يا عماه

-كم اشتقت إليك يا أحمد , مبارك لك على النجاح , أسرع وتفوق , هناك مزيد من الأعباء تنتظرك في المزرعة .

-لا تقلق , فقط أتخرج ولن أقصر في أي عمل تسنده لي .

أشار عمر إلي خارج المنزل قائلا

-والآن يا بطل , انظر ماذا جلبت لك

قال عابد بمكر

-وأنا سأبدو أنني لا أعرف شيئا عما يحدث

نظر لهم أحمد بدهشة قائلا

-يبدو أنكم دبرتم الأمر معا

واتجه إلي النافذة قائلا

-أين المفاجأة ؟

ثم وقعت عينه على سيارة صغيرة تربض أسفل المنزل ملفوفة بشريط هدايا ضخم , التفت إلي الجميع بسعادة ثم إلي عمر وقال

-لا تقل لي أن هذه السيارة هي الهدية ؟

قال عمر

-بل هي الهدية فعلا , ربما تكون ليست جديدة ولكنها أيضا موديل العام وليست مهانة , مبارك يا رجل .

نظرت مريم لعمر في دهشة بينما أحمد اتجه إليه معانقا اياه بقوة وحرارة ومما أثار استغراب الجميع أن عمر بادل أحمد العناق وكأنه والده الذي أنجبه , ثم نظر أحمد إلي عابد

-والآن يا عابد هيا لنمرح بالسيارة الجديدة

قال عابد

-ولما لا , ستتعلم الكثير مني يا بني

وانطلقا إلي الخارج قبل أن تتحدث مسك قائلة

-توخيا الحذر يا رجال العائلة .

ثم اتجه عمر إلي الجميع قائلا

-والآن هل نستكمل الذكر يا شيخ هلال أم ماذا

ضحك هلال قائلا

-هل تفهم الذكر الأمازيغي يا عمر

قال عمر

-مثل هذا ؟

وأخذ ينشد بالأمازيغية مع المنشدين بصوته الأجش الغريب والجميع ينظرون له بتعجب من إتقانه الإنشاد بهذه الدرجة .

أما مريم تمتمت بحذر

-والله أخشي أن أقول , وكأنني أنظر إلي خالد ينشد .

6

في الخارج أخذ عابد وأحمد يلهوان في مرح بالسيارة التي كان أحمد يقودها بسرعة بطيئة خوفا من أن يتسبب في حادث .

أما عابد فكان يشير له على معالم الطريق حتي لا يتوه .

وعلى حين غرة مر أمامهما فضلون بسيارته , نظر إليهما بدهشة بالغة ثم نظر للسيارة متفحصا إياها قبل أن يتجاوزوه مسرعين , في حين أوقف هو سيارته على جانب الطريق ناظرا لأرقام سيارة أحمد ثم قال

-هي , هي بعينها وليست سيارة شبيهة .

ثم أخرج هاتفه ليجري مكالمة هامة .

7

بعد عدة أيام توجهت مريم إلي عمر في الاستراحة فوجدته يقرأ رواية كان خالد قد كتبها قبل وفاته بعام أو يزيد , وما أن شاهدها وجد نفسه يهب واقفا لاستقبالها

-مرحبا يا مريم

-مرحبا بك أنت يا سيد عمر

وجدها تنظر للرواية فخفض يده ووضع الرواية على المنضدة قائلا

-أه ,رواية خالد عبد المنعم الشهيرة , الحب قبل الخبز أحيانا , رواية رائعة ولكن عالمها خيالي لا وجود له في أرض الواقع , مثالية إلي درجة كبيرة .

قالت مريم

-إنها أحب روايات خالد إلي نفسي يا عمر

-تحبين الخيال كثيرا وتسعين إلي عدم الخروج منه في الوقت الذي أفضل أنا أن أكون واقعيا إلي درجة الصدمة يا مريم .

-من قال هذا ؟أحيانا تحتاج إلي بعض الخيال للوصول إلي حل مشكلة من مشكلات الواقع يا عمر .

-أنا أميل إلي الحلول المناسبة التي ظهرت لحل مشكلات مماثلة لما أمر به من وقائع حياتية .

-مريم ضاحكة

الحلول المعلبة تقصد التي لا تراعي الفروق الفردية بين كل مشكلة وأخري ,حسنا كما يحلو لك , ولكن بالنسبة لمشكلتي معك ما هو السبيل إلي حلها ؟

-اية مشكلة ؟

-مشكلة فرض نفسك على أسرتنا الصغيرة بأي شكل , سيارة أحمد التي أراها هدية كبيرة الشأن على طالب جامعي مازال في مقتبل حياته .

ضحك في قوة

-سيارة أحمد أصبحت تمثل مشكلة ؟هذا مالي أفعل به ما أشاء.

-حقا هذا مالك وأنت حر في إنفاقه كيفما يحلو لك ولكن ليس لأسر ولدي وتعلقه المبالغ بك.

-ولما لا تقولين أن أحمد وهيام بحاجة إلي أب .

-كان لديهما ومات يا عمر

لوح بذراعه في يأس

-الأب ليس فقط من ينجب يا مريم.

ليس فقط من ينجب يا مريم.

-قلت لك من قبل مات أبيهم في حادث ولن يتقبلوا فكرة وجود شخص بديل يمارس دور أبيهم .

-لن يصبحوا معك للأبد , سيغادرونك يوما ما كل منهم إلي بيته , وستصبحين وحيدة , ماذا ستفعلين وقتها!؟

- سأعيش على ذكرى والدهم كما أعيش الآن .

يمسك يدها قائلا

-امنحيني فرصة واحدة يا مريم , فقط فرصة أعيش فيها ما تبقى من عمري معك سعيدا إلي أبد الدهر .

تجلس على أقرب كرسي إليها وتنظر له قائلة

-كان دخولك إلي حياتنا أمرا عجيبا يا عمر , والأعجب شعورنا جميعا بالراحة إليك, وتصديك لفضلون جعلنا نتيقن أنك الجانب الخير في تلك المعادلة , ولكن من أنت ؟من أنت حقا ؟نحن لا نعرف عنك شيئا تقريبا , هناك جزء غير مكتمل في هذه الصورة البراقة.

اقترب منها قائلا

-يوما ما ستعرفين الحقيقة كاملة , ولكن الآن ليس بمقدوري أن أتحدث.

-الأمر متروك لك يا عمر , تتحدث أو لا تتحدث هذا شأنك الخاص .

- وستدركين وقتها أنه ليس شأني الخاص بل هناك من يهمه هذا الشأن .

- إن لم تتحدث الآن فاصمت إلي الأبد , وتجنب رؤيتي يا عمر , لم أعد أتحمل المزيد من المعاناة ومرارة الفقد يا رجل

, لا أريد أن يتعلق فؤادي بإنسان ثم يؤخذ مني على حين غرة , يكفيني ما حدث في الماضي .

- لا أحب هذا الضغط يا مريم

-قلبي يحدثني أنك لست هنا لمجرد الاستثمار في الزراعة , أنت هنا من أجله .

- من أجل من ؟

-فضلون

هنا لم يقوى على الوقوف أمامها فوجد نفسه لا إراديا يجلس بجوارها مستسلما يقول

-هو ذا ما تقولين , فضلون .

وانهارت مريم من المفاجأة.

.....

الفصل الثامن :فلنزح الستار قليلا

1

على الجانب الآخر كان فضلون يتحدث في منزله مع ضيف مهم ملثم يجلس أمامه فضلون باحترام وخوف وحذر

- منذ أن اخترناك لأداء تلك المهمة وأنت لا تبلي بلائا حسنا يا فضلون , ترتكب الأخطاء خطئا تلو الآخر حتى أصبحت غير جدير بالثقة .

- من قال هذا يا سيدي , إن أموال المنظمة تدار على أكمل وجه ويتم إرسال الأرباح بانتظام ولم أتأخر يوما واحدا عن تلبية أوامركم .

- من قال لك أن المنظمة غرضها هو جمع المال فحسب يا فضلون ؟

.....
.....

2

استراحة عمر

عمر لمريم : كما قلت لك .. الهدف هو فضلون والمنظمة التي ينتمي إليها , كيان يريد أن يسيطر على المقدرات الاقتصادية في العالم , ونشر الفتن وإثارة النزاعات لبيع

السلاح للأطراف المتنازعة وإثارة النعرات القومية والطائفية في العالم , مسيحيين ضد مسلمين

سنة ضد شيعة , امازيغ ضد مصريين , وحتى الدعوات الخاصة بأن الحضارة المصرية أصلها سوداني .

مريم : يا لها من كارثة ؟

عمر: وفضلون هو أحد أدوات هذه المنظمة .

.....

3

منزل فضلون

الرجل المجهول لفضلون : لا ننكر أنك كان لك دورا هاما في عمليات تدوير الأموال وغسيلها هنا , ولكن ماذا عن المستوى الفكري والعقائدي

؟ المحصلة صفر يا فضلون .

فضلون مدافعا عن نفسه

-لم أكن أنا السبب في هذا .

.....

.....

4

منزل عمر

عمر : كان الشيخ هلال وطائفته من الصوفية إلي جانب علاقاته بمشايخ السلفية المعتدلة حائط سد ضد فضلون بمعتقداته وأفكاره الهدامة التي يحاول أن يلوي بها زراع الدين مستغلا الفقر والجهل بين أهل سيوه

مريم :وكيف لم ينتبه الأمن لهذا ؟

أجابها عمر

-كان يتابع تحركات فضلون ومحاولته جمع عدد كبير من الشباب للإيمان بأفكاره استغلالا لحالة الحماسة للانضمام للتيارات الدينية السياسية التي طفت على الساحة وقتها , و كان هذا ما يبدو عليه الأمر وقتها , ولكن الحقيقة كانت أن كل هذا ساترا لعمليات أخري تشمل التنقيب عن الآثار وتهريب السلاح وحتى تهريب البشر إلي البلاد المجاورة.

-إذن جميع مزارع فضلون بأنشطتها المعلنة هي ستار لأنشطة أخرى غير شرعية .

ثم تساءلت

-وما علاقة المزرعة هنا بهذا الأمر ؟وهل له دخل في موت خالد ؟

-هذا ما نتمنى معرفته , إن إصرار فضلون على إيجار هذه المزرعة ومحاولة الحصول عليها كان أول طرف الخيط

الذي به سيجد الأمن وسيلة ما لإدانة فضلون والمنظمة, الذي رغم كل هذه الشبهات لا يوجد دليل إدانة واحد يقوده للسجن .

.....

5

منزل فضلون

فضلون : وحينما أدرك خالد السر الذي كنت أسعى للحفاظ عليه كان يجب التدخل لإسكاته وإلي الأبد , لذا بعثت سعيد إلي قتله ولا أعلم ما الذي حدث وقتها , كل ما أعرفه أن خالد قتل وسعيد أيضا ولم نجد وقت الحادث سيارة سعيد التي أدى بها المهمة .

قال الرجل الغامض

- يا لها من حماقة تخفي كل أسرارنا فى مزرعة مؤجرة , ولم تخبرنا إلا حينما ظهرت السيارة في يد أحفاد الشيخ هلال هذا ورأيتها أنت , لذا قمت بالاتصال بنا وطلبت مقابلة شخصية .

أجابه فضلون

-كل ما علمته أن السيارة أهداها عمر صفي الدين الي أحمد بن خالد عبد المنعم بمناسبة تفوقه الدراسي , والسؤال هنا كيف حصل عمر صفي الدين على السيارة الضائعة منذ عامين ولماذا ظهرت السيارة الآن ومن عمر صفي الدين ولماذا ظهر في سيوه منافسا لي , يبدو الأمر وكأنه جاء لي أنا فقط .

الرجل : هذا هو السؤال , من هو عمر صفي الدين ؟ هذه هي الإجابة التي ستنتزعها منه أنت شخصيا.

6

استراحة عمر

-حقا من أنت يا عمر ؟

نظر عمر لمريم قبل أن يجيب

-عمر صفي الدين , رجل أمن سابق تعرض لإصابة خطرة أدت لتقاعده عن العمل , وفي احدي المرات استدعته وزارة الداخلية لمهمة ما , تعرض فيها لحادث صعب احترق فيه جسده ودخل في غيبوبة طويلة وتم إدخاله العديد من عمليات التجميل حتى يعود لشكله الطبيعي ولحياته بعد إفاقته من غيبوبة طويلة, هذا ما قيل لي بعد إفاقتي من الغيبوبة ومروري بعمليات تأهيل للرجوع إلي العمل مرة أخري .

قالت مريم

-ماذا تقصد بقيل لك .

- ما أقصده حرفيا أنني حقا لا أعرف من أنا , أشعر أنني لست عمر صفي الدين هذا , أنظر للمرأة فأجد وجها لا أعرفه , أري بعض الأحلام الغريبة التي أري نفسي فيها في شكل شخص ما لا أتذكره ولكني أشعر أن هناك رابط بيني وبين هذا الشخص ولكن لا أعرفه , وحينما سألت الأطباء المختصين بعلاجي قالوا لي أن هذا سببه الغيبوبة الطويلة وما الي هذا من المصطلحات الطبية التي لا أعرفها , وكانت أول

مهمة اوكلت لي هي القدوم الي سيوه ومحاولة الحصول على أي دليل قد يؤدي لكشف حقيقة فضلون والقبض عليه وإيقاف مخططات المنظمة .

-وهل تتخيل أنك ستنجح في هذا ؟

- سأحاول قدر الإمكان معرفة الحقيقة , وكما قلت لك كان إيجار المزرعة أول الخيط.

نظرت له طويلا ثم انفجرت في البكاء

-أخشى على أولادي يا عمر ,لم يبقى لي سواهم .

اقترب منها ولدهشتها وجدت نفسها ترمي رأسها على صدره باكية ويغمرها شعور غريب بالأمان , هكذا , شعور لا تصدقه ولكن تريده في أن واحد , أما هو أخذ بوجهها بين راحتي يده قائلا

-ثقي بي يا مريم واطمئني , اقترب الأمر على الانتهاء .

7

بعد عدة أيام جاء أحمد إلي عمر في الاستراحة وجهه يعتريه حزن كبير وغم ليترك عمر ما يعمله وينظر لسليم اشارة ذات مغزى أن يفسح الطريق لينفرد بأحمد فغادر سليم المكان بينما جلس عمر يستمع إليه

-يبدو أنك يا بني تحمل هموما كثيرة , ها , كلي أذان صاغية .

أجابه أحمد بتردد

-مسك

-مسك مسعود هلال ابنة عمك أليس كذلك ؟

-نعم هي يا سيد عمر

-ماذا بها ؟

-تقدم إليها أحدهم خاطبا وأنا , أنا .....

لم يستطع إكمال عبارته فدمعت عيناه , مما جعل عمر يهرع لمواساته قائلا

-وماذا ؟ أكمل؟ هل تريدها ؟

قال أحمد

-أشعر باليتم ,حقا أشعر أن اليوم فقط مات أبي , كنت أعتقد أنني قويا بما يكفي لكي أحافظ على وعد وعدته لأحد , اذ بي لا أستطيع فعل شيء , أحب مسك وكنت أظن أن ارتباطي بها سيستمر حتى أتخرج , ونتزوج ولكن لم أعرف أن عادات سيوه تختلف عنا في القاهرة , لست أمتلك فعلا ما يجعلني في صورة الخاطب الجاهز على الوفاء بكل ما يتطلبه الزواج .

- والحل ؟

-حقا لا أعرف , ماذا أفعل , أنا مجرد حالم أخر , لا يستطيع تنفيذ حلمه .

-من قال هذا يا أحمد , إن أمنت أن حلمك سهل التحقيق ستفعلها ,وان لم تؤمن ستظل كما أنت لا تقدم جديدا , ولكن دعنا من هذا الآن وقل لي هل تثق بي ؟

- نعم يا سيد عمر , أشعر أحيانا أن الله ساقك إلينا لكي تحل محل أبي في النصح والإرشاد .

-حسنا يا أحمد , توجه معي الآن على الفور إلي بيت عمك مسعود ولا تنسى أن تدعو أمك وهيام .

احمد بدهشة

-لماذا ؟

-ستعرف وقتها , فقط اجلس وراقب وتعلم كيف تدار الأمور.

وقف احمد متوترا وقال

-سيد عمر أنا لا أريد أن أتسبب في أي مشكلة لمسك .

أمسكه عمر من كتفيه قائلا

- انظر إلي ,هذا حلمك وستقاتل من أجله حتي يتحقق , سنخطو معا خطوة نعذر بها إلي الله , وبعدها سننتظر منته علينا .

ثم يدفعه دفعا إلي المغادرة

-والآن اذهب لتدعو والدتك وهيام .

لم تمر الساعة إلا وكان الجميع يجلسون مع الشيخ هلال ومسعود وزوجته سعدى , كانت الزيارة مفاجئة للجميع حتى

مريم التي كانت تسأل عمر في رحلة الذهاب عما ينوي فعله دون جدوى .

وبعد كلام الترحاب المعهود تحدث عمر

-لا أعرف هل مكانتي عندكم تعطيني الحق في التحدث باسم أحمد وكأنني مثل والده أم لا ؟

أجابه الشيخ هلال

- يعلم الله أن قلبي يطمئن إليك يا عمر , وقلب المؤمن لا يخذيه , تحدث يا ولدي نحن ننصت لك.

عقب مسعود

-هل الأمر مهم إلي هذا الحد؟

-هو أمر يمثل أهمية قصوى لدي صاحبه ووكلني بالتحدث عنه , ما رأيك يا شيخ مسعود؟

-كما قال أبي , نحن نحبك في الله يا رجل ولم نرى منك الا خيرا .

ابتسم عمر في سعادة وقال

-بداية مبشرة , حسنا , ان أحمد يطلب يد مسك للزواج , ما رأيكم ؟

عم الصمت الجميع إلا عمر الذي أراد أن يطرق الحديد ساخنا فقال

- أعلم أن هناك من تقدم لها من خارج العائلة , ولكن دعنا نتكلم في العرف الذي يقول أن أحمد من دمها ويرغب فيها إذا هو الأحق بها

تنحنحت سعدى في حرج وقالت

-اعذرني يا سيد عمر ولكن أنت تعلم أن أحمد ما زال طالبا وأنه يلزمه الكثير من الوقت لتكوين نفسه و

قاطعها عمر قائلا

-ان احمد أحد أهم مسوقي منتجات جسور الزراعية يا ام عابد وراتبه الذي يتقاضه كفيلا بمتطلبات الزواج وله جناح كامل في بيت أبيه , أليس كذلك يا مريم؟

العجيب أن مريم من أثر حديث عمر أكدت على الفور دون تفكير

-لن نجد مثل مسك زوجة لأحمد وابنة لي , شرف لنا هذا الرباط المقدس .

وهنا قال مسعود

-الأمر هنا بيد أبي , لا أتحدث في وجوده , ما رأيك يا شيخ هلال ؟

-هذا عرفنا منذ القدم يا ولدي ,ولست جدا لمسك فقط بل لأحمد وبدور وهيام وعابد , كلهم أولادي وأحفادي , لذا أوافق وأرحب بهذا أيضا

وهنا دوت زغاريد مسك تملأ المكان وسط ضحكات الجميع ثم دخول عابد المفاجئ إلي المكان قائلا

زغاريد ؟ هل تزوجت يا أبي , مبارك يا حج مسعود.

لكزته سعدى في صدره وقالت

-يا ملعون

وارتفعت ضحكات مسعود وهو يقول

-يا لها من فكرة جديرة بالدراسة هههههه

-احترس يا مسعود هناك غرفة تغلق على كلينا أخر النهار , احذر لن ينفعك أحد .

ضحك هلال وعمر في قوة بينما سأل عابد

-ما زلت لم أعرف بعد ما الذي حدث

أجابه أحمد

-ما رأيك , ربما في القريب العاجل ستضطر لزيارة مسك عندنا في البيت .

صمت عابد قليلا ثم قال بفرح بعد أن فهم المقصود

-يا لها من مفاجأة سعيدة , مبارك يا أخي كل ما أخشاه عليك أنك ستضطر لطلب الطعام دليفري كثيرا , كان الله في عونك يا بطل.

صرخت فيه مسك منزعجة

-عابد , أيها الوغد أنت لم تسمن إلا على طعامي.

وارتفعت ضحكات عابد وأحمد المرحة قبل أن يقاطعهما عمر قائلا .

-والآن أيها الجمع السعيد , لي كلمة قصيرة أود أن أدلي بها , سيدي الشيخ هلال , هل لي أن أطلب طلبا منك ؟

-تفضل يا ولدي واللهم اجعله طلبا مجابا إن شاء الله

نظر عمر لمريم وقال

-أريد يد مريم للزواج يا شيخنا

توقفت مريم عن الحديث مع سعدى ونظرت بغضب لعمر وقالت

-ما الداعي يا عمر إلي هذا ؟ حتما أنت لا تدرك ما تقوله أو حتى توقيته لماذا يا عمر الآن ؟لتفسد فرحتنا ؟

أجابها عمر

-ردي ليس عليك

التفت إلي أحمد وهيام

-أحمد هيام , أطلب نيل شرف أن أكون بديلا لأبيكما الراحل , أعرف أنني لن أعوض مكانته , ولكن سأكون على نهجه قدر المستطاع .

سكت أحمد قليلا ثم قال

-أنا لا مانع لدي , وشرع الله لا جدال فيه .

قالت هيام

-أنا أيضا لا أمانع

ضحك عمر في سعادة ثم قال للشيخ هلال

-ما قولك يا شيخنا ؟

-القول قول مريم يا ولدي .

التفت الجميع إلي مريم منتظرين إجابتها بينما هي ظلت تنظر إلي الأرض صامتة ثم رفعت رأسها .

-تقوم بمحاصرتي يا عمر ؟ حسنا , أوافق

وهلل الجميع في سعادة ومرح أما الشيخ هلال دمعت عيناه وهو يقول

-الآن فقط يدخل الفرح بيت الشيخ سلام , رحمة الله عليك يا خالد , فليسمع الجميع الآن ما سأقوله , في مطلع الشهر القادم أي بعد خمسة عشر يوما سيكون عقد قران مريم وعمر وخطبة مسك وأحمد أيضا.

قال عمر

-موافقة يا شيخنا الجليل .

8

مع مطلع الشهر كان عقد القران كما قال الشيخ هلال , أضاءت الأنوار منزل الشيخ وجاء العديد من الحضور من أهل الواحة , بلغت فرحة أحمد ومسك عنان السماء , أما عمر ومريم كانا ينظران للجميع في حبور وسعادة , وكان الشيخ هلال قد استقر على مبيت هيام مع بدور ومسك وأحمد مع عابد ثلاثة أيام رغبة منه في إتاحة الفرصة لعمر ومريم بإتمام الزواج , لذا بعدها غادر العروسان المكان وسط دعوات الحضور لهما بالخير .

في منزل خالد دخل عمر بصحبته مريم وهي تشعر بخجل وقلق اعتراها فهي لم تتخيل أن يحدث هذا مرة ثانية .

صلى بها عمر ركعتي السنة ثم نظر إليها بعد تبديل ملابسها وقال

-لا أجد وصفا يصف ما أنا فيه من الفرحة يا مريم .

قالت مريم بخجل

-اصمت ولا تتحدث ,إلي الآن لا أصدق أنني أعيش هذه اللحظة مرة ثانية , سامحك الله .

رد عليها عمر بسعادة

-أحبك يا مريم ولم أعد أعرف ماذا سيحدث ان وجدت نفسي يوما ما وحيدا من دونك .

ثم وجد نفسه يردد كلمات شعرية لنزار قباني

-أحبك جداً.. أحبك.. أحبك

أحبك جداً وأعرف أن الطريق الى المستحيل طويل

أحبك جداً وأعرف أني أسافر في بحر عينيك دون يقين

وأترك عقلي ورائي وأركض

أركض.. أركض خلف جنوني

أيا امرأة.. أيا امرأة.. تمسك القلب بين يديها

سألتك بالله لا تتركيني

فماذا أكون أنا.. أنا إذا لم تكوني

أحبك جداً وجداً وجداً

وأرفض من نار حبك أن استقيلا

وهل يستطيع المتيم بالعشق.. أن يستقيلا

وما همني.. إن خرجت من الحب حيا

وما همني.. إن خرجت قتيلا

نظرت إليه مريم ممتقعة الوجه متراجعة في دهشة من كلمات القصيدة مما جعله يقترب منها متسائلا

-مريم , ماذا دهاك ؟

-تلك الكلمات ؟

نظر لها في حيرة وقال

-كلمات نزار !؟ ماذا بها ؟

دمعت عيناها وهي تقول

- هذه هي الكلمات التي خاطبني بها خالد يوم زفافنا .

ازدادت حيرته وهو يقول

-وجدت نفسي أرددها فجأة دون سابق إنذار

- وهل وجدت نفسك تتحدث الامازيغية فجأة دون سابق إنذار أيضا !؟

قال عمر

-هل أكون كاذبا ان قلت لك أنني حقا لم أكن أعلم أنني كنت أجيد التحدث بها؟

-أشعر بالحيرة ,رأسي تعصف به الأفكار .

يقترب منها مطمئنا ويحتضنها ويحدثها قائلا

-دعينا من هذا الآن ولننعم بليلتنا معا يا مريم أم هل لك رأي أخر .

استكانت إليه وشعرت بنفسها تذوب بين يديه وساد الظلام الغرفة لينعما بلذة المحبين عدة دقائق , ولكن على حين غرة هبت مريم من حضنه صارخة

-لا لا لا , أنت هو , أنت خالد , ولكن كيف ..كيف ؟ لقد مات خالد

نظر لها عمر ممتقعا تكسو وجهه علامات الهلع والمفاجأة وتحدث بصوت مبحوح

-ماذا تقصدين يا مريم

أجابته منهارة

-أقسم بالله أنت هو , الزوجة تعرف تفاصيل زوجها كما يعرفها هو , ولكن كيف ؟ كنت أشعر منذ أن رأيتك أنك تتشابه معه كثيرا طريقة المشي ,تحدثك بالأمازيغية , حفظك لأشعار الصوفية وإنشادها , كيف ؟أنت ميت ..هل تعلم ؟ميت , ولكنك أمامي حي , هذا الوجه ليس وجهك وهذا الصوت ليس صوتك ,ولكن الجسد جسدك يا خالد بالله عليك أجبني

أخذت مريم تصرخ ثم سقطت منهارة تبكي على مقعد في الغرفة فيسرع لإمساكها وعيناه دامعة , ضمها إليه , الصداع الرهيب ألم برأسه الرؤى تنهال على رأسه بصور كثيرة , يبكي يصرخ من الألم ينتفض جسده , تحتضنه مريم وتضمه إليها وتريح رأسه علي صدرها باكية , تنسحب ذاكرة عمر صفي الدين منه وتومض من جديد ذاكرة خالد عبد المنعم , يهدأ جسده , وينام نوما عميقا جدا , تهدهده كطفل صغير تاه ثم عثرت عليه أمه , تعتدل وتحتضنه وتتشبث به وتتشمم جسده غير مصدقة

.....

في الفجر قامت مريم ووجدته قد غادر الفراش وجلس في الردهة أمام المرآة ينظر لنفسه في صورته الجديدة , أخذت تنظر إليه هي الأخرى , تقدمت منه احتضنته , أمسك يدها يقبلها فقالت له

-أشعر أنني أعيش حلما أو أحداث فيلما هنديا سخيفا مبالغ فيه ما الذي يجري يا خالد ؟

أجابها قائلا

- أريد أن أعرف حقا ما الذي يجري , من أنا حقا , أعرف الآن أنني خالد عبد المنعم , من عمر صفي الدين هذا ؟

- رجل أمن هكذا قلت لي , لا أعرف كيف لم أنتبه لكل هذه التغيرات , جسدك قد نحل وأصبح أقوى , هذه الصلعة الخفيفة في مقدمة الرأس , الذقن والشارب كانا من علامات وجهك المميزة , لم يعد لهما وجود , أنفك المدببة أصبحت طبيعية تماما, وجهك نفسه أصبح ممتلئ , كل هذه التغيرات خدعتني , ولكن صوتك كيف تغيرت نبرته؟ كنت أشعر أنه حقا مألوف لي ولكن تخيلت أنه أثر الفراق على نفسي جعلني أتخيل كل الموجودات أنت .

نظر لها دامع العينين وقال وهو يشير إلي عنقه

- احتبس صوتي بعد الحادث لفترة طويلة وتضررت أحبالي الصوتية جراء بعض الأدوية , و الآن سنعرف كل شيء , لقد أجريت مكالمة هامة مع شخص ما حتما سأعرف الكثير عن ما جرى خلال الفترة الماضية .

قالت مريم

- من هو ؟

دوى صوت جرس الباب فجأة فاتجه خالد لفتحه ليجد رجل وامرأة يقفان خارجه , والرجل يخاطبه قائلا

-لقد هرمنا من أجل هذه اللحظة , مرحبا بعودتك يا مستر خالد عبد المنعم .

نظر له خالد وقد تذكره

-أنه أنت , أنت من كان حاضرا في عيد الصلح , ومن أتى لزيارتي في المدرسة وأخر من تحدثت إليه يوم الحادث , أنت ....

-كامل إبراهيم , العقيد بإدارة الأمن القومي بوزارة الداخلية , هلا أفسحت لنا الطريق ؟

أجابه خالد بإحراج

-تفضلوا .

دخل كامل وبصحبته السيدة التي صافحت مريم قائلة

-هند خضري طبيبة الأمراض النفسية والعصبية .

-أهلا بك يا سيدة هند.

جلس الجميع وبادر خالد كامل بالسؤال

-أريد أن أفهم من سيادتك ماذا يجري لي ؟

تراجع كامل في مقعده وقال

-لم تكن بداية الأمور من هنا , كانت البداية عند فضلون , هذا الرجل الغامض الذي تثير أنشطته وغناه الفاحش المفاجئ علامات الاستفهام عند الأمن المصري , وبعد التحريات الأزمة نمى إلي علمنا تعامله مع منظمات خارجية هدفها إثارة النزاعات والمشكلات في المناطق العربية لإثارة الفتنة بين أبناء الوطن الواحد بتعدد ديانته وقومياته ومذاهبه , بهدف السيطرة على المقدرات الاقتصادية للبلاد والتمتع بخيراتها , وفضلون كان مجرد أداة لتنفيذ هذه المهام وواجهة لهذه المنظمات , وحينما تولى ممثل التيار الإسلامي السلطة في مصر تعاظم دوره بشدة وخلال هذا العام تمكن من تكوين ثروة هائلة من عمليات تهريب السلاح والبشر , وكما قلت لك كان فضلون حذرا بشدة وخطواته محسوبة أيضا , فلم نستطيع إلقاء القبض عليه بدليل ملموس, ثم جاء اليوم الذي استطاع فيه تأجير هذه المزرعة ليس بهدف زراعتها بل بهدف إخفاء خبيئة ضخمة من الأموال والأسلحة بل والآثار المهربة أيضا وبعض الأوراق التي تكشف عن هوية أعضاء المنظمة في مصر في باطن أرضها في مخزن سري لا يعلمه ألا هو , ثم تم إلقاء القبض عليه بسبب تورطه في مظاهرات تطالب بعودة الرئيس السابق الذي تم عزله عن الحكم , ولم نعرف أبد ا وقتها أين أخفي أسراره نظرا لامتلاكه أكثر من عشرين مزرعة مماثلة .

قالت مريم

-ومتى كشف سر المزرعة ؟

أجابها كامل

-حينما خرج فضلون بعد كل هذه الأعوام من المعتقل لاحظنا انه استعاد نشاطه بسرعة , ولاحظنا أيضا أنه يحاول استرجاع هذه المزرعة دون غيرها حاول مع مسعود ومع خالد ورفضت أنت وقتها , حتى حان موعد عيد الصلح وقتها حينما قدم فضلون برجاله كنت أنا حاضرا وشاهدته وهو يتراجع عن هجومه عن عيد الصلح بعد ما أسررت أنت إليه بكلمات لم يعرف أحد فحواها ولكن بدت مهمة ما دامت أدت لتغير ملامح فضلون ورجوعه , أيقنا وقتها أنك تعلم سرا عنه جعله يتراجع ولكن تري ما هذا السر الهام لهذه الدرجة ؟

أكمل خالد

-ثم أتيت أنت لمقابلتي في المدرسة .

-نعم , وقتها لم يكن أمامي إلا كشف جميع الأوراق أمامك وترك حرية اتخاذ القرار لك .

هنا تدخلت هند خضري لأول مرة في هذا الحديث المثير قائلة

-كان قرارك هو التعاون معنا وإخبارنا بما كشفته عن فضلون وعن سره وخبيئته , وحينما توجهت أنت بالسيارة لمقابلة السيد كامل , لاحقك رجل فضلون سعيد بسيارته , لا نعلم كيف دار القتال بينك وبينه ولكن وجدنا سيارتك محترقة وسعيد متفحم بجوارها , وأنت فيما يبدو استطعت الخروج ولم تبتعد بالقدر الكافي , انفجرت السيارة ومن أثر الانفجار مات سعيد وتفحمت جثته , أما أنت , أصبت بحريق في

جسدك ووجهك يتخطى ال٢٥في المائة تقريبا وأصبحت بين يدي الله تنتظر رحمته .

أكمل كامل

-استطعت أنا أن أحملك وأتوجه في سيارة إسعاف إلي أقرب مستشفى لأجراء إسعافات أولية ريثما يتم نقلك إلي القاهرة في طائرة مجهزة , كنت بمثابة كنز لنا يجب المحافظة عليه بأية صورة , في الوقت نفسه خشينا عليك إن تسرب خبر نجاتك أن تتم محاولة أخري للقضاء عليك لذا بدأت الخطة المعقدة لحمايتك , وهي إعلان وفاتك ودفن جثمان سعيد على أنه جثمانك أنت وهو ما تم بالفعل وتأكدت من حدوثه بنفسي حينما حضرت مراسم دفنك بصفتك خالد عبد المنعم .

قال خالد

-ولماذا لم تخبروني بكل هذا حينما خرجت من هذه الغيبوبة ؟

أجاب كامل

- كانت هذه هي المشكلة , حينما استيقظت بعد إجراء أكثر من خمسة عمليات تجميل وعلاج للحروق لم تكن تتحدث أو تتذكر أي شيء عن حياتك الماضية ومظهرك الخارجي أصبح مظهرا جديدا لا يمت بصلة لمظهرك القديم وكأنك لم تولد من قبل وهكذا كانت الصدمة للجميع , أصبحنا جميعا في المربع صفر, وأهم مصدر لنا فقد كل ما يعرفه عن حياته السابقة وفقد مظهره أيضا.

هند: ما حدث لك هو فقدان الذاكرة التفارقي

الذي يظهر نتيجة لصدمة نفسية أو رضة (Trauma)، مثل أن يكون الشخص ضحية لعمل إجرامي عنيف، في هذا النوع من الاضطراب قد يفقد الشخص جزءًا من الذكريات الشخصية والمعلومات عن سيرته الذاتية لعدة ساعات، لأيام أو لفترة أطول.

قال لها خالد

-من عمر صفي الدين ؟

قال كامل

-بعد أن فقدنا الأمل في كل شيء , جاءت اللحظة الفارقة على يد طبيبة نفسية عبقرية أخري بالجهاز تسمى د:منى قابل مصابة بهوس الرسم بالقلم الجاف , اقترحت د منى أن يتم اتباع استراتيجية جديدة لعلاجك ألا وهي غرس شخصية أخري في وجدانك وهي شخصية عمر صفي الدين .

مريم : ولماذا عمر صفي الدين هذا ؟

قالت هند

-كان يجب أن يكون عمر صفي الدين هو الشخصية الجديدة التي سيظهر بتا خالد , لان شخصية عمر صفي الدين نفسه هي من ابتكار وبنات أفكار خالد نفسه , كان عمر صفي الدين هو بطل الرواية الأخيرة التي كان خالد يكتبها عش مرة واحدة ومت مرتين , وكانت عن ضابط شرطة من نوع خاص مغامر, لذا حينما نقوم بغرس هذه الشخصية بداخله

سيكون من السهل إقناعه انه حقا عمر صفي الدين وتم تسمية العملية باسم الرواية .

قالت مريم

-يا لها من خطة معقدة فعلا.

أكد كامل على كلامها قائلا

-حقا , والأصعب من هذا كان صناعة تاريخ مزيف لعمر صفي الدين , لذا استعنا بتكنولوجيا الديب فيك وصناعة بعض مقاطع الفيديو والصور القديمة لخالد بشكله الجديد واستخدامها لإقناعه انه عمر صفي الدين .

قالت هند

-كانت الخطة رائعة ومجنونة وهكذا تم زرعك من جديد ووضعك في طريق فضلون وفي بيئتك القديمة ذاتها بصفتك رجل أمن على أمل أن تستعيد ذاكرتك وتخبرنا عن سر فضلون , ولكنك وبكل بساطة انجرفت عامين كاملين استطعت فيها أن تحقق حلمك الخاص بك مزرعتك التي يعمل بها العديد من العمال دون أي تعصب لعرق أو دين أو غيره ,حققت كعمر صفي الدين ما لم تحققه كخالد عبد المنعم .. وزاد الأمر طرافة زواجك من مريم وأصبحت الرجل الذي تزوج زوجته مرتين وأخيرا تذكرت من أنت .

كان خالد قد بدأ يشعر بدوار ينتابه من هول المفاجأة فلم يملك الا أن يقول .

- حتى حينما أصبحت إنسانا ناجحا كنت في ثوب رجل أخر .

قالت هند

- ومن قال أنك لست ناجحا كخالد عبد المنعم , فقط فقدانك الذاكرة جعلك تخرج من إطار خالد وتنظر للأمور من إطار عمر صفي الدين , بنظرة خارج الصندوق , نحتاج أحيانا إلي البعد عن قلب الحدث لنراه من جميع الجوانب .

قال خالد

- ربما وماذا حدث أيضا , أكمل يا سيد كامل .

- وبصفتي رئيسك المباشر أمرتك بتقديم سيارة سعيد الي أحمد كهدية ,والتي ما أن يراها فضلون حتى سيعرف أن هناك خطب ما يتعلق بك وانك تعرف شيئا عن جريمته في قتل خالد لذا سيبادر هو بالهجوم على المزرعة لإنهاء هذه المشكلة .

قالت مريم

-وما أهمية هذه الخبيئة لفضلون ؟

قال كامل

-هذه الخبيئة هي هدفه الذي يسعى له منذ البداية , لقد أقنع المنظمة أنه قد تمت مصادرة كل أموالهم عند القبض عليه وهكذا يستطيع عند عودته استخراج الأموال والآثار والتمتع بها بمفرده , حتى وان تم كشف أمره لهم , المستندات التي تحتوي على أسماء عناصرهم في مصر والعالم العربي ستكون بحوزته يساومهم بها مقابل عدم القضاء على حياته

وهكذا كان الأمر الذي رتب له لولا عودتكم وإقامتكم في المزرعة التي منعته من استخراجها .

خالد : لهذا حاول طيلة الوقت الاستيلاء على المزرعة .

كامل : هذا ما يسعى له فعلا , والآن هل تذكرت أين الخبيئة ؟

وقف خالد ونظر من شباك الردهة وأشار إلي مكان المظلة التي يستظل بها العمال وقال

- غرفة فضلون هنا , تحت هذه المظلة في الأسفل , تفضل معي يا سيدي .

توجه كامل معه إلي الباب وما إن خرجا حتى انهال عليهما وابلا من الرصاص يطلق عليهما من أكثر من جهة فتراجعا

خالد : لهذا حاول طيلة الوقت الاستيلاء على المزرعة .

كامل : هذا ما يسعى له فعلا , والآن هل تذكرت أين الخبيئة ؟

وقف خالد ونظر من شباك الردهة وأشار إلي مكان المظلة التي يستظل بها العمال وقال

- غرفة فضلون هنا , تحت هذه المظلة في الأسفل , تفضل معي يا سيدي .

توجه كامل معه إلي الباب وما إن خرجا حتى انهال عليهما وابلا من الرصاص يطلق عليهما من أكثر من جهة فتراجعا

إلي الداخل وأغلق كامل الباب من خلفه طالبا من مريم وهند أن يحتميا بأي غرفة بالداخل .

أخذت مريم تصرخ منهارة بينما أخرجت هند سلاحا ناريا صغيرا واتخذت ساترا تتبادل فيه إطلاق النيران وهي تقول

-إنه هجوم مكثف من ثلاث جهات يا سيدي .

أجابها كامل وهو يتخذ ساترا

-أعلم , وأحاول الاتصال بالقيادة الآن, ساعدني فى القتال يا عمر

تراجع خالد بخوف وقال

_ لا أستطيع

صرخ كامل فيه بثورة سنموت يا رجل ماذا دهاك ؟

قالت هند وهي تنظر لخالد بتركيز

_ ثق بي يا خالد أنت تستطيع , أنت أقوي مما تتخيل , تذكر يا خالد , تذكر عمر صفي الدين .

هاجم الصداع رأس خالد وأخذ يمسك برأسه ويصرخ من ألم نوبة الصداع , تتسارع الصور والذكريات إلى عقله , يصرخ ينادي عليه , أين أنت يا عمر ؟ أين أنت , كيف تتركني وأنت الداء والدواء ؟ يسأل نفسه حقا من هو ؟ خالد عبد المنعم الحالم الأخير الذي يرغب في إصلاح الكون أم عمر صفي الدين الواقعي الذي يعرف من أين تؤكل الكتف ويواجه الصعاب بكل جسارة ؟

شعر خالد أن هناك صوتا يناديه من رأسه يقول

-هل تنادي يا خالد؟ سقط خالد عبد المنعم أمام قوة عمر صفي الدين بالضربة القاضية , ينتهي الصداع , تبرق عينيه بعزم وتحدي , يقف منتصبا بشموخ ناظرا لكامل الذي قال له

_ مرحبا بك يا عمر ,لماذا تأخرت يا رجل ؟

ناوله كامل سلاحا ناريا وبدأ عمر أو خالد في إطلاق النار على مهاجميه من النافذة بغزارة وتتناثر الدماء كالشلال , لقد عاد عمر صفي الدين ويا لها من عودة .

و استدار خالد وجذب مريم من يدها مطمئنا إياها قائلا

-لا تخشي شيء يا مريم أنا هنا معك الآن

و التفت إلي أحد أدراج مكتب صغير في الصالة وفتحه وأخرج منه سلاحا إضافيا وعدة خزائن ذخيرة له واتجه إلي نافذة يستطلع منها الموقف , أمسكت به مريم بخوف وقالت

-لا يا خالد , أرجوك لا , أخشى أن يقتلوك بالله عليك لا .

-مريم , أرجوك يا مريم لا تفارقي المكان الآن ودعيني , أنا المستهدف , ولا أحد أخر لا ريب أنه فضلون .

قال كامل بغضب

-كان يريد استغلال وجودك بمفردك في المزرعة مع مريم للسيطرة عليها وحصارها ونقل الخبيئة .

صرخت هند

-ماذا سوف نفعل الآن , ستنفذ الذخيرة

أجابها كامل

-القوة تتجه إلينا الآن , أخشى ما أخشاه أن يصلوا هم إلينا أولا .

ومع تواصل إطلاق النار المستمر نفذت الذخيرة فجأة وامتقع وجه كامل وقال

- فرغت منا الذخيرة , لا مفر من المواجهة .

لم يكد ينتهي من كلامه حتى وجد فضلون يتحدث من الخارج قائلا

-اخرج مستسلما أنت ومن معك يا عمر , حافظ على أرواح النسوة لديك .

نظر كامل إلي خالد مطأطأ رأسه بالإيجاب ثم قال خالد لمريم

-لا تقلقي , وعديني الآن , ان حدث لي شيء , ألا تخبري الأولاد عن موضوع بقائي على قيد الحياة إلي الآن , لا داعي أن يتحملوا مرارة الفقد مرتين , صدقيني يا مريم , الآن فقط وجدت نفسي ووجدت لحياتي قيمة ما .

تسرع إليه تحتضنه وتبكي بشدة , يقبلها على رأسها ثم ينظر لكامل ويخرجان خارج المنزل , بينما هي تسرع للهاتف وتطلب رقما ثم تقول

- مسعود , أدركني , نعم إطلاق النار من هنا , فضلون , أدركنا يا مسعود.

في الخارج وقف فضلون في مواجهة خالد وكامل وحوله ثلة من رجاله والباقي يحاصر المزرعة

-والآن يا عمر صفي الدين , كشفت الأوراق كلها , كنت تظن أنك ستخدعنا للأبد أنت ورجال الأمن ؟ هراء

ثم أشار فضلون لرجاله قائلا

-افتحوا الغرفة وانقلوا كل المحتويات إلي الخارج .

اتجه الرجال لتنفيذ الأمر ثم قال فضلون

- كنت تظن أنك ستنجح في مخططك هنا يا عمر ؟

-مخطط؟ أنت من يعرف لغة المخططات يا هذا , أما أنا نجحت في تحويل هذا المكان إلي جنة يعمل فيها الجميع لا فرق بين مصري وليبي وسوداني , لا فرق بين أمازيغي وعربي , كل من هنا انتمائهم لهذه الأرض فقط ذابت القوميات والأعراق والمذاهب وأصبح الكل للواحد والواحد للكل , أما أنت وغيرك من مثيري الفتن لن تجدوا خيرا من مزبلة التاريخ وباطن الأرض التي ستدفن فيها ككلب عقور .

-البقاء للأقوى يا عمر , لمن تظل جذوره تمتد في جميع الأماكن وتتحكم في الأنفس , جنتك هذه ما هي إلا محاولة حمقاء من بشري أحمق يظن أنه بإمكانه إصلاح الكون , إنها قاعدة لا تتغير , مادامت البطون خاوية فالعقول تظل مفتوحة للسيطرة عليها ولكن احرص أشد الحرص أن لا تشعر البطون بالشبع , لأنها إن شبعت ,ساعتها ستعمل العقول وتفكر وتصبح شوكة في ظهرك.

ثم ينظر كامل لساعته فيلاحظه فضلون فيضحك قائلا

-تأخر الدعم يا كامل بك أليس كذلك ؟ اطمئن , رجالي يتعاملون معه ويؤخرون مجيئه إلي هنا

, أرأيت حسن التنظيم يا عمر؟

هنا جاء رجل فضلون إليه مخاطبا

-الغرفة فارغة يا سيد فضلون

صرخ فضلون في قوة

-كيف ؟

ثم يلتفت إلي عمر ويجذبه إليه قائلا

-أين الخبيئة يا عمر ؟ أين ؟ أجب وإلا ستصبح في عداد الموتى الآن.

ضحك خالد في قوة وقال

-أولا لست عمر صفي الدين, ثانيا الخبيئة تم العثور عليها منذ عام تقريبا ونقلت إلي جهة أمنة , لم أكن قد استعدت ذاكرتي بعد لذا قررت الاحتفاظ بها في مكان ما حتى أعرف ما الذي يدور حولها, أرأيت حسن التنظيم يا فضلون ؟

-من أنت أيها الوغد ؟قل لي من أنت ؟

-أنا خالد , خالد عبد المنعم الذي قام إليك من قبره ليقتص منك .

قال فضلون بدهشة

-خالد ؟ ولكن كيف ؟ أه , ملعوب جديد من ألاعيب الأمن هو؟

قال كامل

-هذه هي الحقيقة يا فضلون ولا حقيقة غيرها .

-اصمت أنت

ثم يلتفت إلي خالد منتزعا خنجرا من جيبه وقال

-أين الخبيئة أيها الوغد ؟

هنا لكمه خالد فجأة في وجهه فسقط أرضا , واشتبكا الاثنين في قتال ضار, أما كامل استطاع انتزاع سلاح رجل فضلون وبدأ في إطلاق النار على رجال فضلون .

أخذ كل من خالد وفضلون يكيلان الضرب لبعضهما ويحاول كل منهما السيطرة على الأخر , بينما كامل استطاع إرداء عدد من الرجال قتلي وهند تساعده بإطلاق النار من داخل المنزل .

فضلون : ستموت الآن وإلي الأبد

خالد : مرحبا بالموت في سبيل إنهاء وجود أمثالك يا فضلون

ومع انتهاء عباراته فوجئا الاثنان بسيارة محملة رجال يقودها مسعود ومعه عابد وأحمد , وبدأ رجال عابد في تبادل إطلاق النار مع رجال فضلون الذين قاوموا بشراسة بينما اتجه أحمد

وعابد للبيت لحماية مريم , دقائق قليلة واختلط الحابل بالنابل واكتمل الأمر بدخول قوات الأمن فجأة إلي القتال من السور الخلفي للمزرعة وانقلبت الكفة ودارت الدائرة على رجال فضلون وانتهت المعركة .

مسح كامل عينه بظاهر يده وأخذ يبحث بين الرجال الملقية على الأرض على خالد حتى وجده ملقيا أرضا وينازع الموت بسبب طعنات تلقاها في صدره من فضلون , انحنى عليه كامل دامع العينين قائلا

-استرح يا خالد سأجلب الإسعاف لا تتحدث

أجابه خالد بصوت متقطع

-انتهى الأمر , الخبيئة لدى عمي هلال , أمانة

-أين فضلون ؟

أشار خالد لجسد مسجى على وجهه

- لم يعد هناك فضلون , دققت عنقه

أتت مريم وأحمد , شاهدته صرخت وانهارت أمسك يدها قبلها بضعف ثم في الرمق الأخير قال

-لا تحزني يا مريم , سألقى ربي راضيا إن شاء الله , كما قلت لك .

ثم أغمض عينه وصعدت الروح لبارئها وسط صرخات مريم , عاش خالد مرة واحدة ومات مرتين .

تم نقل الجثمان إلي القاهرة ودفنه بصفة عمر صفي الدين حرصا من الأمن على عدم تهديد أسرة خالد وتعرضهم للانتقام.

انتهى أحمد من قص الحكاية على خالد الصغير في المقابر , دمعت عينا أحمد كثيرا , أما خالد فقد وقف يحدق للقبرين صامتا ثم قال

-ومتى علمتم الحقيقة ؟

- ظلت جدتك في حالة انهيار ومنعزلة سنوات طويلة وقبل وفاتها بفترة أخبرتنا الحقيقة , رحمة الله عليها , أما المزرعة وشركة جسور تمددت وانتشرت وأصبحت هذا الكيان العملاق جسور للإنتاج الزراعي التي يعمل فيها ثلاثون ألف عامل في فروعها العشر .

- لهذا تصر أمي مسك وخالي عابد أن أسمي ولدي القادم إن شاء الله عمر .

-نعم , حتى تخلد ذكراه .

- كما تريدون يا أبي , فليصبح عمر خالد أحمد خالد عبد المنعم .

نظر أحمد إلي الشمس الغاربة وقال

-انه الغروب , هيا بنا الآن حان وقت الرجوع للبيت, لم أعد أقوي على التواجد في الخارج طويلا .

ثم انصرفا إلي حال سبيلهم وبعد أسبوع أمر خالد الصغير بهدم قبر خالد عبد المنعم , ووضع شاهد رخامي جديد على قبر عمر صفي الدين كتب عليه قبر المرحوم خالد عبد المنعم (عمر صفي الدين) عاش مرة واحدة مات مرتين .

تمت